للمؤلف

١ — فاجعة فوق كنز

٢ — الأميرة الهندية

٣ — سبعة ملائكة وشيطان

٤ — برىء فى الأغلال

بعض ما قيل فى قصـــة

(بريء فى الاغلال)

مالها وما عليها

نخبـــة من تعليقات النقاد وأقوال القـــراء

« قصة حافلة بالمفاجئات ، مثيرة للمواقف الخالدة نحا فيها مؤلفها نحـــوا جديدا فى القصص الشرقى العربى وهى سهـــلة الأسلوب ، جميـــلة العرض . . . . »

(جريدة الاهرام الغراء ٢٥ يونية ١٩٤٧)

« احدى روائع القصص المصرية الطويلة عـرض فيها مؤلفها جانبا من الحياة المصرية فى حوادث مترابطة وبأسلوب شائق وقد حلل شخصيات القصة تحليلا دقيقا أبرز فيه مكنونات النفس من خير وشر فامتلأت القصة بآيات من العـــبر والدروس والمبادىء الساميـــة والمثل العليا . . . . »

(جريدة المصرى الغراء ١٤ يوليو ١٩٤٧)

« قصـــة مصرية طويلة مليئة بالمواقف القوية المثيرة وهى تمتاز بجودة أسلوبها والتصوير الجميل . . . . »

(جريدة صوت الأمة الغراء ٢٦ مارس ١٩٤٧)

« . . . والقصة تتميز بجمال التصوير ورقة الأسلوب ودقة العرض، وقـوة التشويق حتى أنها لتأخذ بلب القارىء فلا يكاد يستطيع أن يضعها من يده قبل أن يأتى على آخرها ، وهى فى مجموعها تصور النضال المـرير بين قوات الخـــير والشر كما يصوره الذهن القصصى الموهوب وخيال الروائى المفطور . . . . »

(مجلة الصباح الغراء ٢٩ مايو ١٩٤٧)

« . . . . . وهى جيدة من حيث موضوعها الذى استهدف كاتبه أن يكتب للفضيلة أنفس . ويعلل فيه قدر الحق وان خال البعض أن رايته أنزلت من ساريتها . وهى قصة تميزت بأسلوب جميل لولا ذلك التسرع الذى تسبب فى طائفة من الأخطاء كان فى الطاقة اجتنابها وتلافيهـــا »

(جريدة منبر الشرق الغراء ٢٥ أبريل ١٩٤٢)

« . . . . وهى تمتاز بدقة الوصف وجمال التصوير وعمق التفكير وقوة الحبكة والتشويق ، هذا فضلا عن أنها رفعت الحب الى مستوى العبادة والتقديس واشتملت على مبادىء ومثل عليا تسمو بالقارىء الى عالم السموات . وما آخذه عليها هو كثرة ما فيها من أحزان وفجائـــع وآلام »

ن . ك
خريجة كلية الاداب

« . . . . وهى حافلة بالأغراض والأهداف السامية التى يجب على كل قصصى أن يستهدفها وخاصة فى دور الانتقال الذى نجتازه الآن ، ان النشء الحديث فى أشد الحاجة الى القصص المشوقة الرفيعة التى تعالج مواضيع كموضوع هذه القصة »

دكتور حسين رحيم
مدرس بكلية الطب

«والقارىء لهذه القصة يشعر أنه يعيش مع أبطالها وشخوصها فى جانب من المجتمع المصرى نابض بالحياة ولا شك أن ذلك راجع الى صدق نظرة المؤلف النفسية والاجتماعية ومقـــدرته على التحليل والوصف والتعبير »

محمد سليمان شعلان
مدرس بمدرسة الخديوى اسماعيل الثانوية

كلمة الناشر

هذه هى القصة الثانية التى أقوم بنشرها للأستاذ حسن رشاد، والقصة الأولى هى تحفته الرائعة « برىء فى الأغلال » التى صدرت منذ أشهر قلائل والتى عدها النقاد فتحا جديدا فى القصة المصرية الطويلة ، ولقد كانت القصة بحق نصرا كبيرا للقصص المصرية المطولة وليس أدل على ذلك مما ظفرت به من نجاح باهر ورواج كبير .

وأود هنا أن أذكر حقيقة يجهلها القراء وهى اننى حين أقدمت على نشر قصة « برىء فى الأغلال » لم أكن فى الواقع أتوقع لها كثيرا من الرواج لا لشىء الا لأننى كنت أعرف أن حظ القصة المصرية المطولة من النجاح والرواج ضئيل جدا ، ولكن ما كادت القصة تظهر وتتداولها الأيدى حتى وقع خلاف ما توقعت ، فقد استقبلها القراء باعجاب بلغ أقصاه ، ورحب بها النقاد أحسن ترحيب ، كما قررتها وزارة المعارف بمكتبات جميع مدارسها الثانوية مما أدى الى نفاد جميع أعداد الطبعة الأولى ، ويسرنى أن أعلن أن الطبعة الثانية ستظهر قريبا وستكون كأختها فى جودة الطبع وأناقة المظهر .

هذا عن قصة « برىء فى الأغلال » أما فيما يختص بهذه القصة فيكفى أن أقول ان جميع من اطلع على موضوعها من الأدباء قد

أجمعوا على أنها من أروع القصص وأقواها ، وقد بنوا حكمهم هذا على ماحفلت به من المواقف القوية والمفاجئات المثيرة والعظات البالغة والحوادث المحكمة المشوقة التى تستهوى النفوس وتخلب الألباب .

وأخيرا أهنىء مؤلفنا الشاب بهذا النجاح ، وأرجو أن يجد دائما من التقدير ما يستحث خطوته ويلهب عزمته فى مضمار هذا الفن الرفيع .

١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧ عبد الفتاح عنانى

اخطاء يرجى تصحيحها قبل قراءة القصة

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٨	٨	الشفيق	شفيق
٨	١٥	تقرأ	نقرأ
١١	١٥	خوات	أخوات
٢٠	٤	التسعة	الأولى
٢٢	٩	وساين	وسترين
٢٣	٥	الزوقاوين	الزرقاوين
٢٥	٩	أحد	احدى
٣٢	٤	سيجاياك	سجاياك
٣٢	١١	فكره	فكرى
٩٠	١١	أخير	اخيرا
٩٢	٣	أغانى	أغان
١٥٣	٢	بما	مما
١٧٤	١	ملىء	مليئا

شكر

يشكر المؤلف حضرات الأدباء والقراء الذين رحبوا بجهوده ، وهو اذ يسجل لهم هذا الشكر لا يسعه الا أن يعاهدهم على مضاعفة هذه الجهود ليظل له هذا التقدير الذى يفخر به ويعتز .

المؤلف

الفصل الأول

في أصيل يوم من أيام الصيف من عام ١٩٤٥ أقبل على فندق (الجبيلي) بمصيف (عاليه) بلبنان شاب طويل القامة ، أسمر اللون ، نحيل الجسم ، شاحب الوجه ، يسير بخطوات قلقة وقد بدا أشعث أغبر كأنه آت من سفر بعيد ، ولم يلبث أن ألقى على من صادفه من نزلاء الفندق نظرة عابرة شاردة ثم انطلق في أثر أحد موظفي الفندق الى احدى الغرف ، وظل هنالك ساعات ثم عاد الى القاعة الكبرى وقد تأبط كتابا وأرسل بصره في شرود غير عابىء بما يحيط به من مظاهر المرح واللهو والتسلية ، ولحظ عن كثب مقعداً منعزلا في أحدى الشرفات فأسرع اليه واتخذ مجلسه في صمت وهدوء ، وكانت القاعة الكبرى والأبهاء المؤدية اليها تعج بالمصطافين من طلاب اللهو والاستجمام وتضج بأصوات الضحك والرقص والموسيقى ومع ذلك فقد ظل الشاب جامداً شارداً لا يكاد يأتي حركة ولا يكاد يحس مما حوله شيئاً ، كان يبدو عليه أن أمراً خطيراً يشغل باله ويستولي عليه حواسه ويصرفه عن التفكير فيما عداه ، وأنه ليحاول أن يهرب من خواطره فيتشاغل عنها بالقراءة في كتابه حيناً وتأمل مفاتن الطبيعة الممتدة أمامه حيناً آخر

ولكن خواطره كانت تأبى الا أن تلح عليه وتتشبث بذهنه وتشتمل عليه اشتمالا ، وكان مصيف (عاليه) يمتد أمام ناظريه بكل مشاهده الفاتنة ومجاليه الحسان ، كانت قمم الجبال بأكاليلها الغر وأشجار الغابات بغصونها الوارفة الظلال ، والبساتين الحافلة بمنوع الأزهار والثمار ، هذا كله كان مجتمعاً أمام عينيه فى صورة رائعه تبعث فى النفس السرور وتوحى اليها بالصفاء ، ولكن ثمة أشياء فى الأعماق من نفسه كانت تثقل عليه وتلقى أمام عينيه حجابا كثيفاً ثقيلا يبعث فى النفس الحزن والانقباض ويحجب عنها الجمال والضياء .

وطلب عشاءه بعد وقت ثم نهض وغادر الشرفة ومشى الى غرفته بخطى متباطئة ثقيلة كمن يمشى فى جنازة .

ومرت أيام وهو منهك فى خواطره التى تساوره وقلقه الذى يطويه ، ولكنه بعد أسبوع استطاع أن يروض نفسه على حياة المصيف ويستسيغها واستطاع أن يجد فى هذه البيئة الحلوة الساحرة الراحة التى يجدها الملاح بعد عاصفة عاتية هددته بالدمار ، كان فى الصباح يخرج للتريض فى الحدائق والتصعيد فى الربى المجاورة حتى اذا حل المساء عاد الى الفندق وعكف على القراءة والكتابة وتأمل سحر الطبيعة من ركنه المنعزل فى

صمته المطلق وهـــدوئه المعهود ولـكنه ظل فى جميع الأوقات شديد الابتعاد عن الناس زاهداً فى الحـديث معهم زهده فى رؤيتهـــم .

وفى مساء أحـد الأيام كان جالسا فى مقعده كما جلس من قبل عشرات المرات ، فى يمناه كتاب وفى يسراه لفافة تبغ وأمامه صفحة طعام لم تمسه يداه من فرط استغراقه فى التفكير ، وفجأة دخل القاعة الـكبرى رجل أنيق المظهر ضخم الجسم فى الخمسين من عمـره فاذا جو من الأهمية يجتـاحها واذا ببعض النزلاء يـكفون عن الرقص واللغط ويخفون الى استقباله مع من خف اليـه من الموظفين ، ووقف الرجل قليلا يحيى الجميع بايماءات رشيقة ويوزع ابتساماته هنا وهناك فى حركات تمثيلية متـكلفة ثم ما لبث أن أحنى هامته وتبع أحـد موظفى الفندق إلى غرفتـــه .

وظل النزلاء يخوضون فى الحـديث عن الأستاذ «شفيق صلاح الدين» الممثل المصرى المعروف ودواعى حضوره الى المصيف وما قد يـكون لذلك من علاقة بأعماله وأعبائه الفنية الى انفض سامرهم فى ساعة متأخرة من الليل .

وكان الأستاذ شفيق أحدى الشخصيات المعروفة فى الأوساط الفنية فى مصر ، وكان يتمتع باحترام ومحبة جمهور كبير من العامة فى مصر والأقطار الشرقية ولكن عيبه الوحيد يتمثل فى عجزه عن ارضاء الخاصة من طبقة المثقفين وذوى الوقار والاحتشام لجنوحه الى حشو قصصه السينمائية بألوان من الفن العارى الذى يثير فى النفس نوازع الشهوات وبواعث الجسد ، ولجرأته فى السطو على انتاج الغير ونسبته الى نفسه واسرافه فى محاكاة الغربيين محاكاة عمياء ممقوتة . ولم يكن الأستاذ شفيق حين قصد هذا الفندق يبغى فى الحقيقة القيام بأى عمل من أعماله الفنية كما ظن النزلاء لأول وهلة ، فقد كان هدفه من حضوره الحصول على أوفى نصيب من الراحة وقضاء بضعة أيام فى هذه البيئة الخلوة ريثما تلحق به المطربة العراقية الجديدة « ليلى » التى اكتشفها أثناء طوافه فى البلاد الشرقية والتى تعاقد معها على العمل فى فيلمه الجديد « النجم الهاوى » .

ولقد نعم الاستاذ شفيق فى هذه الفترة بمفاتن الحياة الخلوية التى ينشدها طلاب الرياضة والاستجمام ، واندمج فى هذه البيئة اندماجا خالصا . وتوثقت عرى الألفة والصداقة بينه وبين أكثر المصطافين ولا سيما المليونير المصرى « عارف باشا »

وزوجه وكريمته الشابة الحسناء « فائزة » والوجيه السورى جميل بك وقرينته وحفيدهما الشاب الرياضى «عادل» وكان من المناظر المألوفة أن يرى وقد تصدر مائدة الاسرتين وأخذ يتحفهم بأفانين قصصه وطريف نوادره ، فلما كان الاسبوع الثانى من أقامته لقى الشاب الذى جاء ذكره فى مطلع القصة وكان لقاؤهما لقاء فريدا لما خطه فى حياة كل منهما من عميق الآثار ، ففى مساء يوم كان الاستاذ شفيق يجلس كعادته الى مائدة « عارف باشا » فى الشرفة وأمامه عند الأفق صفاء البحر وزرقة السماء ، وكان على مقربة منهم مائدة يجلس اليها أربعة من المصطافين يلعبون الورق وفى الطرف الآخر كان يجلس الشاب المنفرد فى ركنه المنعزل فى صمته العميق وشروده المتصل ، وكان الاستاذ شفيق فى ذلك الوقت يحكى لرفاقه بصوت مرتفع ولهجة تمثيلية قصته الجديدة « النجم الهاوى » التى الفها خصيصاً لمطربته الجديدة « ليلى » ، وكان الجميع يصغون اليه بآذان مرهفة ونفوس مكبرة ونظرات تومض بالاستحسان والاعجاب ، وكان اثناء سرده للقصة يرقب فى زهو ما يرتسم على وجوه سامعيه من مختلف المعانى ، فهذا ينطق التأثر الشديد فى محياه ، وهذه تترقرق الدموع فى مآقيها ، وتلك تحدق فى وجهه وتتابع عباراته فى لهفة واعجاب.

وكانت القصة مأساة تدور أحداثها حول حياة مطربة ارتفعت بفضل حسنها البارع وصوتها الساحر الى ذروة المجد ولكنها مع ذلك عاشت أتعس حياة وماتت أشنع ميتة وأشقاها ، وحين سكت الاستاذ شفيق بعد أن قال ما قال بصوت حزين النبرة عجيب الألقاء ، أقبل عليه الجميع يهنئونه ويشدون على يده فى حرارة واعجاب فابتسم وقال وقد تبدلت لهجته وشاع فيها الزهو والاعتداد .

ـ عجبا ، هل أثرت فيكم قصتى الى هذا الحد ؟ ـ فأجابته فائزة وفى عينيها دمعة تترقرق .

ـ حقا ، أن خاتمتها مؤثرة للغايه ـ وكان النزلاء الاربعة الذين يجلسون الى المائده المجاورة يصغون اليه اثناء سرده للقصة فلما فرغ منها نهضوا بدورهم من أماكنهم وتتابعوا الواحد تلو الآخر وأخذوا يهنئونه فى كلمات لبقة وعبارات رقيقة .

ولحظ الاستاذ شفيق أن وراء المائدة الثالثة فى الشرفة شابا يجلس معرضا عنه وبيده كتاب وأمامه صحاف من طعام لم تمسه يداه وكأنما وجد الاستاذ شفيق فى اهمال الشاب لشأنه واعراضه عنه تحديا صامتاً لا يجمل الرضا به أو السكوت عليه فحول اليه نظره وأرسل اليه ابتسامة من يتساءل .

ـ وأنت ما قولك ؟ ـ

فرد اليه الشاب ابتسامته بأخرى مقتضبة وقال

— تعنى القصة ؟ لا بأس بها على أى حال ـ

وكان على وشك أن يدس أنفه فى كتابه حين ارتفع صوت الاستاذ شفيق قائلا ـ اه ، هاكم شخصا لا يرى رأيكم فى القصة على ما أظن ـ وسكت لحظة ثم تطلع اليه واستطرد متسائلا

— هل سمعتها من البدايه الى النهاية ؟ ـ

فاجابه فى غير مبالاة وهو يتأمل دخان سيجارته اذ يتبدد فى الفضاء

— أجل ، ووعيت كل كلمة فيها ـ

فقال الآخر ـ حسنا ، وما رأيك صراحة فيها ؟ ـ

وقبل أن يجيبه التفتت فائزه ناحية الشاب وقالت لمن معها وهى تتأمـــله .

— يخيل الى أن له روح فنان ـ

فحولت أمها نظرها اليه وقالت متسائلة ـ أحقا ؟ ـ

فأجابها ـ أجل ، ولكن الى حد ما ـ

قالت ـ مصور ـ

— كلا ـ

— ممثل ـ

ـ كلا ـ

ـ مثال ـ

ـ كلا ـ

ـ روائى ـ

ـ أجل ..... ـ

وعندئذ قال عارف باشا ـ اذن بوسعك أن تزن (النجم الهاوى) كما يفعل الخبير ـ

فأجابه ـ وما نفع ذلك للاستاذ الشفيق؟ ـ

فأسرع شفيق يقول ـ بالعكس، اننى اعلق أهمية كبيرة على رأى الناقد مادام مخلصا فى مذهبه ، والآن هل لك أن تشرفنا بقضاء السهرة معنا ـ

فترك الشاب مكانه وتقدم ناحيتهم فى بطء وبعد أن أحنى رأسه قليلا قدم نفسه قائلا ـ شوقى أمين ـ

وما كاد يتفوه باسمه حتى شخصت الأبصار اليه وهتفت احدى الجالسات قائلة ـ اه ، اذن فأنت الكاتب القصصى الذى تقرأ له فى الصحف كثيرا ـ

وقالت فائزة وهى تصافحه وتفسح له مكانا بجوارها ـ ما أشد تطابق منظرك على الصورة التى ترسمها قصصك فى ذهن القارىء

فقال مبتسما ـ هل تظنين ذلك ؟ ـ

قالت ـ بكل تأكيد ، ولا ريب أنك تحس كل كلمة تكتبها فى مآسيك ـ

فقال ـ هذا حق ياآنسة ـ

قالت أحدى الجالسات ـ أتشعر بكل هذا الألم حقا ؟ ـ

فسكت لحظة شرد فيها بذهنه ونظر بعيدا ثم قال بصوت كئيب ـ أجل ، أننى أصور ما أحسه فى دنياى ـ وأدرك الأستاذ شفيق أن بين يديه فنانا قديراً وروائيا موهوبا فتجنب فى حذر الخوض معه فى المسائل الفنية وود من صميم فؤاده لو ينصرف الحديث الى موضوعات لاتمت للفن بصلة ولكن أحدى الجالسات ما لبثت أن خيبت رجاءه حين عرجت الى الحديث عن القصة بقولها

ـ والآن ، هل لك أن تخبرنا برأيك فى النجم الهاوى ـ

فتحرك الأستاذ شفيق فى مقعده وقال ـ حقاً ، كم أنا مشوق لسماع رأيك فيها ـ

فقال الشاب ـ أتريد رأيي صراحة ؟ ـ

قال ـ طبعا ... فليس أبغض الى نفسى من المجاملة فى مثل هذه الأمور ـ

فقال شوقى ـ حسنا ، فى رأيى أن قصتك من القصص التى لاتعيش فى القلوب طويلا ـ

فسأله وهو يتفرس فى وجهه ـ ولماذا ؟ ـ

فأجابه ـ لانها بعيدة كل البعد عن الواقع حتى ليتعذر على الشرقى أن يجد نفسه فيها ، هـذا من جهة ومن جهة أخرى فالقصة فى رأيى نسخة مكررة لقصة « غادة الكاميليا » المعروفة وأنت وأن كنت قد نجحت فى طمس بعض معالمها الا أنك لم تنجح فى اقتباس قصة ذات أحداث تحاكى طبائع الشرقيين وتتسق مع دوافعهم وحوافزهم وعاداتهم المتأصلة ، واعتقد انك توفق غاية التوفيق اذا أعدت كتابة القصة مستعينا فى خلق حوادثها بدراسة حياة أحدى الفنانات الشرقيات فأن حياتهن مليئه بوقائع وتجارب لاتنضب ، وخير ماتفعله فى هذا الشأن أن تبدأ بدراسة حياة بطلتك الجديدة « ليلى » التى سمعتك تتحدث عنها الليلة ـ

فقال الآخر ـ عظيم ، ولكن هل تصلح حياة فناناتنا أساسا لقصص مثيرة ؟ .

فأجابه ـ ولم لا ، لا شك أن وراء حياة البعض منهن تكمن قصص أن لم تكن مثيرة فهى تصلح لأن تكون أساسا لقصص

ناجحة .

فقال شفيق ـ أنا معك ، ولكن الشيء الذى لا أتردد فى الجزم به هو أن حياة « ليلى » العراقية لن تمنحنا فى يسر المادة التى تنشدها .

فقال شوقى ـ أنك أدرى بذلك طبعا ولكن لا تنس أن الكثيرات منهن يؤثرن الكتمان بدافع الرغبة فى ستر ماضيهن عن الناس ، فهل فتشت فى تاريخ حياتها وتعمقت دراسته جيداً ؟ـ فأجابه ـ الواقع أننى بعد أن فتشت فى تاريخ حياتها القريب والبعيد لم أجد فيه غناء ، لأنه تاريخ مئات الفتيات اللائى ينشأن فى الطبقة المتوسطة التى تعيش على دخل محدود حتى إذا ما أصيب العائل بكارثة حل بجميع ركاب سفينه البوار ولحق بهم الفقر والتشرد والبؤس والعوز ، ولقد أمضت (ليلى) طفولتها وصباها وفجر شبابها فى أحدى الأسرات التى تنتسب لهذه الطبقة ، ومات أبوها وتركها فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها مع خوات ثلاث ، ومع أم شقية جاهلة لا تحسن شيئاً تستعين به على كسب قوتها وقوت عيالها . وكانت (ليلى) كبرى أخواتها فحملت العبء قبلهن وأحست بمحنة الضيق والحرمان أحساسا عنيفا قاسيا ، وكانت تمتاز عن أخواتها وعن سائر

بنات البلدة التى كانت تعيش فيها بوجهها السمح وحسنها الرائع وصوتها العذب الصافى فلما نزل بالأسرة الضيق ولاح شبح الأملاق أخذت ليلى تفكر فيما تستطيع أن تفعل لتخرج الأسرة من وهدتها وعندئذ تقدم أحد أصدقاء أبيها - ممن كانوا شديدى الأعجاب بعذوبة غنائها ورخامة صوتها - بمشروع يرمى إلى الانتفاع بموهبتها الموسيقية وتوجيهها توجيها فنيا يعود عليها وعلى أسرتها البائسة بالنفع الجزيل والخير العميم ، وترددت الفتاة بين الأقدام والأحجام واخيراً أذعنت لارادة الرجل وانتقلت مع أسرتها إلى بغداد ، وهناك أقبلت على تعلم أصول الموسيقى على يد بعض الاخصائيين حتى حذقتها وألمت بأصولها الماما تاما ، وبعد زمن دفع بها إلى بعض الحفلات الخيرية فلقيت نجاحا عظيما ونالت أعجاباً كبيراً ، وكنت فى ذلك الوقت أطوف فى الأقطار الشرقية للبحث عن وجوه جديدة ، فلما بلغنى خبرها أسرعت إلى بغداد وعرضت عليها العمل معى فى فلمى الجديد ، وكم كانت دهشتى كبيرة حينما رفضت السفر إلى مصر رفضاً باتاً وأعرضت عن كل عروضى المغرية اعراضا تاماً ولكنى مازلت بها حتى قبلت الرحيل بشروط فرضتها على وقبلتها عن طيب خاطر ، هذه هى القصة بحذافيرها ولا شك

أنكم توافقوننى على أنها لا تشتمل على شىء جديد يعول عليه فى الانتاج السينمائى ـ

فقال شوقى ـ سواء أكانت هذه القصة صحيحة أم غير صحيحة فبوسع الخيال أن يخلق منها شيئا مثيرا ـ

فقال الآخر ـ مادام هـذا هو رأيك فماذا لو عهدت اليك بهذه المهمـة ؟

فأجابه ـ كم يسرنى أن أقوم بهذه المهمة ، ولـكن لاشك أننا نحسن صنعا اذا أرجأنا ذلك لحين حضورها ـ

فقال الآخر ـ من حسن الحـظ أنها أرسلت الى أمس تنبئنى بحضورها فى نهاية الاسبوع القـادم ولا شك أنه سيكون من دواعى سرورى أن أقوم بواجب تقديمها اليكم جميعا ـ

فقالت فائزة ـ كم أنا مشوقة لرؤيتها ، ترى أجميلة هى ؟ ـ

فأجابها ـ أوه ، انها رائعة الجمال ، وأجمل ما فيها وداعتها وجاذبيتها الطاغيـة ـ

وهنا قالت أمهـا ـ لست ادرى لمـاذا توجه عنايتك لدراسة حياة مثل هذه المطربة وعند الأستاذ شوقى من الروائع ما يفى بالحاجـة ؟

فقال شفيق ـ آه ، حقاً ، أن الأستاذ شوقى قصصى مبدع بارع

ولا شك انى أنجح غاية النجاح اذا مدنى بقصة من قصصه الرائعة ـ

فقال شوقى ـ انى على أتم استعداد لتحقيق رغباتك ياأستاذ شفيق ولكنى لن أستطيع البدء فى ذلك الا بعد الفراغ من تدوين قصة حياتى ـ

فهتفت فائزة ـ قصة حياتك !! لابد أنها شىء مثير للغاية ـ

فأجابها ـ هذا هو اعتقادى ـ

فسأله شفيق ـ ومتى تفرغ منها ؟ ـ

ـ بعد أربعة أيام أو خمسة اذ لانزال أمامى ثلاثة فصول غير الخاتمة ـ

ـ حسنا ، وأننى لأرجو الا تحرمنا من الاطلاع عليها بعد الفراغ منها ، فهل تعدنا بذلك ؟ ـ

ـ بكل سرور على انى لن أفعل ذلك الا اذا قمتم بمساعدتى فى وضع الخاتمة ، فهل تعدوننى أنتم الآخرون بذلك ؟ ـ

فقالوا جميعا ـ نعم ـ نعم ـ

وقال عارف باشا ـ لاشك أن هذا سيكون عملا مسليا للغاية ـ

ومرت أيام أذعن فيها شوقى لرغبات هذه الصحبة

أو الامتناع عليها ، فاندمج معهم اندماجا خالصا وشاركهم فى كل نواحى النشاط التى كانوا يمارسونها بين الماء والشمس والهواء ، وتوثقت بينه وبين الاستاذ شفيق وأفراد الأسرتين الألفة والمودة والصداقة القوية فكان يلازمهم فى كل رياضة يهيئونها فى الحدائق والغابات والشواطىء البعيدة ، وكان لا يفارقهم الا ساعات قلائل كان يخلو فيها الى نفسه للفراغ من قصة حياته ، وكان قد بنى عزمه على أن يمد اقامته أسبوعا آخر كى يتاح له لقاء المطربة الجديدة والتعرف اليها ولكنه أكره على اختصار مدة اقامته بسبب ورود رسالة من أمه بالقاهرة تحمل نبأ مرض زوجها وتطور حالته الأمر الذى استلزم سرعة عودته للقيام بواجبه نحوه على أنه لم يغادر المصيف الا بعد أن أتم تدوين قصته «حطام قلب» فى دفتر متوسط الحجم أهداه للاستاذ شفيق ليطلع عليه اولا ثم يقوم بسرد القصة على بقية رفاقه اذا حازت اعجابه .

وذات صباح بعد رحيله بأيام بدا لأفراد الأسرتين أن يخرجوا للنزهة فى الخارج وكان الاتفاق قد تم على أن يصحبهم الاستاذ شفيق ليحكى لهم قصة شوقى فى احدى الحدائق ، وبينما كان الجميع على أهبة الرحيل أقبل أحد الخدم وناول شفيق

البرقية التاليه :ـ

سأصل مساء اليوم أو غدا مع أفراد الاسرة ؟

ليلى

وهنا التفت الى من معه وقال ـ انها من ليلى تقول فيها بأنها ستصل اليوم أو غدا ولذا فأنى استأذنكم فى البقاء هنا انتظارا لحضورها أما أنتم فتستطيعون أن تمضوا الى نزهتكم وأما القصة فتستطيع فائزة أن تنوب عنى فى قراءتها لكم ـ

قال ذلك ثم مد يده وناول فائزة الدفتر واستطرد يقول ـ انها قصة مثيرة للغاية ـ فسألته بلهفة وهى تقلب الدفتر بين يديها ـ أذن فقد قرأتها كلها ؟ ـ

ـ طبعا وما كان يوسعى أن أفعل غير ذلك ، أنها قصة مشوقة وجديرة بالاعجاب ـ

فقال عارف باشا ـ أحقا ، اذن فسنمضى يوما سعيدا ممتعا ـ

فقال وهو يودعهم عند الباب الخارجى ـ بكل تأكيد..... انها أغرب قصة سمعت بها فى حياتى ، الى اللقاء ـ

وقضت فائزة ومن معها وقتا ممتعا بين المشاهد الطبيعية التى تزخر بها البقعة الخلابة الجميلة وأخيرا استقر بهم المقام فى احدى الحدائق الغناء حيث تناولوا طعام الغداء ولما طاب لهم

المجلس بعد الفراغ من الطعام جلسوا فى استرخاء فى ظلال خميلة جميلة وبعد لحظات امسكت فائزة الدفتر بين يديها وأخذت تتلو عليهم ما يلى :—

الفصل الثانى

ولدت عام ١٩١٨ وكانت أسرتنا ضيقة الحال مقترا عليها فى الرزق تعيش عيشة متواضعة على راتب أبى الضئيل ، ولكن فقرنا كان من نوع البؤس المستور الخجل ، بؤس عائلة الموظف الصغير الذى يريد رغم فقره أن يحافظ على مظاهر النعمة ليأخذ مكانه بين غيره من الموظفين المحترمين مهما كلفه الامر ، وكان أبى يشغل وظيفة كتابية صغيرة بأحدى المصالح الحكومية بالقاهرة وقد قضى فى وظيفته الصغيرة هذه طوال سنى حياته دون أن ينعم فيها بترقية وليس ذلك لأنه كان موظفا خاملا ، ....كلا ، بل لأنه كان يجهل جهلا تاما سبل التقرب والزلفى التى كان يجيدها غيره والتى كان قوامها المبالغة فى التودد للرؤساء وارضاءهم والتخلى أمام رغباتهم عن كل مبادىء الاخلاق والشرف والكرامة ، ولقد تحمل أبى هذا الحرمان فى بطولة صابرة وكان يرى زملاءه الخاملين يتخطونه ويسبقونه الى المناصب المغرية فيغضب أحيانا ويتظلم أحيانا أخرى ولكنه كان فى كل مرة يشكو فيها يجابه بالكلمة الحاسمة التى لا يجد مفرا من الاذعان لها والتسليم بها

وهى ـ هذه ارادة المدير العام ـ فيعود مكتئبا مهموما ليضع كل اهتمامه فى عمله وفى القيام بواجباته نحو اسرته ، وكنت وحيد أبوى الأمر الذى جعلها شديدى العناية بى والعطف على والتعلق بى ، وكان أبى أشد حبا لى وشغفا بى ولعل مرجع ذلك زيادة على الاعتبارات السابقة قوة ماكان بينى وبينه من مشابه وقد كان لعنايته الفائقة بى والاشراف التام على شئونى أكبر الأثر فيما ظفرت به فى حياتى الدراسية والعملية من تقدم وتفوق ونجاح فلم أكد أبلغ العاشرة حتى كنت قد ظفرت بالشهادة الابتدائية بتفوق وحصلت على خبرة كبيرة فى هوايتى الرسم والموسيقى وهما الهوايتان اللتان كان يتعشقهما أبى وبذل جهدا كبيرا فى تلقينى أصولهما وقواعدهما المختلفة .

وكانت أمى تصغر أبى بخمس عشـــرة سنة وكانت فى الوقت الذى ظفرت فيه بالشهادة الابتدائية تشارف السادسة والعشرين من عمرها وكانت تبدو فى نظرى بارعة الحسن تمثل فى امتشاق قامتها واشراق ملامحها ونضرة وجهها تمثالا حيا للجمال، وكانت كافة الاعباء المنزلية ملقاة على عاتقها وحدها ومع ذلك كانت تقوم بها فى احتمال نادر وصبر كريم ، كان عليها أن تطهى الطعام وتغسل الثياب وترتب الأثاث وتراجع الميزانية وكان

عليها الى جانب ذلك أن تعمل الليل والنهار لكى تهيء لنا الراحة والسعادة والحياة الهادئة والمظهر اللائق فى حدود ميزانيتها الضيقة المحدودة .

وقضينا هذه الأعوام التسعة على هذه الوتيرة لا نعرف من ملاهى الحياة ومتعها غير التنزه فى الحدائق العامة أيام الجمعة أو حضور حفلة سينمائية كنا ندخر ثمنها نظير الاستغناء عن بعض وجبات الطعام أو ابدالها بوجبات تافهة القيمة ، وتسير وتيرة الحياة على هذا المنوال الى أن دخل ابى ذات يوم مهرولا نحو أمى ليعلن لها فى فرح غامر النبأ العظيم ، نبأ وقوع القرعة عليه لتمثيل زملائه من صغار الموظفين فى الحفلة الخيرية الساهرة التى يقيمها سعادة المدير العام لمساعدة جمعية الفتيات الضريرات ، وأن عليها أن تستعد لتبدو معه ومعى فى مظهر لائق مشرف . وفى مساء اليوم التالى لبست أمى أبهى ما لديها من ثياب وتأنقت ما وسعها التأنق ثم خرجت معنا وقصدنا مكان الحفلة ، وكان المكان عند وصولنا يموج بأناس أنيق المظهر ويعج بأصوات الرقص والموسيقى فاتخذنا مجلسنا الى مائدة فى طرف المكان ورحنا نتأمل فى عجب ودهشة وذهول نحور النساء المكشوفة وظهورهن العارية وضحكاتهن الماجنة ونكاتهن الفاجرة ، وبينما

نحن فى غمرة الخجل والعجب اذا بشاب أنيق الملبس وسيم الوجه يترك مكانه خلسة من احدى الموائد ثم يغيب لحظات ليظهر فجأة على مقربة من مائدتنا ثم يدور على عقبيه بحركة سريعة فيتقابل نظره بنظر أبى وفى اللحظة التالية هتف وهو يدنو من أبى مصافحا :

ـ اهلا وسهلا امين افندى ، أأنت هنا من زمن ؟ ـ

فهب ابى واقفا على قدميه وأخذ يده وصافحه فى أدب جم قائلا

ـ مرحبابك ياتوفيق بك ...انا هنا منذدقائق واظن انه لم يفتنا شىء كثير من البرنامج ـ

فقال الآخر وهو يرمق أمى خلسة بنظرات هى مزيج من الدهشة والاعجاب

ـ أنت رجل محظوظ ياأمين افندى ولولا ذلك لما فزت بالقرعة امس دون غيرك ـ فقال أبى ـ صدقت ، ولا شك أنك ستدهش كثيرا اذا علمت انها اول مرة نحضر فيها لمشاهدة مثل هذه الحفلات ـ

فابتسم الآخر ابتسامة رقيقه وقال ـ أحقا ؟ آمل أن يكون كل شىء هنا قد راق الهانم ـ

والتفت الى أمى فأسرع والدى وقال ـ اه ، لا شك انها مسرورة

للغاية ـ وسكت لحظة ثم التفت الى أمى واستطرد ـ هذا توفيق بك .... سكرتير خاص سعادة المدير العام ـ

فنهضت أمى واقفة فى حيرة وارتباك وتعثر وصافحت اليد التى امتدت اليها دون ان تنبس شفتاها بكلمة فسألها الشاب وهو يحدق فى وجهها مليا

ـ هل هذا هو رأيك فى الحفلة حقا ؟ ـ

فقالت متلعثمة وهى مطرقة الرأس ـ نعم ..... أنها لا ريب حفلة شائقة ـ

فقال ـ وساين العجب العجاب كلما تابعت النمر ، أنها اول حفلة يقيمها سعادة المدير بوصفه الرئيس الفخرى لجمعية الفتيات الضريرات ولكنه سينجح نجاحا منقطع النظير بفضل المجهود الذى بذله فى اعدادها ـ

وهنا دارت عيناه لتلقيا على نظرة سريعة قصيرة تبعها بقوله وهو يربت كتفى فى عطف ظاهر ـ ابنكما الوحيد ؟ ـ

فأجابه أبى ـ نعم ، هذا ابنى شوقى ـ

فقال الآخر ـ تلميذ نجيب على ما أظن ؟ ـ

فأجابه للغاية، لقد حصل على الشهادة الابتدائية هذا العام بتفوق.

ـ بديع ... بديع جدا ، أمل أن يكون النجاح حليفه دائما ـ

وكنت أثناء هذا الحديث أحملق فى وجه الشاب وأنا أحس بدبيب غريب من الكراهية والاستهزاز يتسلل الى أعماق نفسى ويطغى على مشاعرى ، كان الشاب فى نحو الخامسة والعشرين من عمره وكان بوجهه الجميل وشعره الذهبي اللامع وملامحه الدقيقة وقوامه الأهيف وعينيه الزوقاوين وحاجبيه المزججين يشبه أنثى الى حد بعيد ، ولا شك أن هذا التخنث الظاهر كان وحده المسئول عما شعرت به نحو هذا الشاب من نفور وزراية واحتقار ، وانى لاذكر هذه الليلة كما لو كانت بالأمس لأنها كانت أول لقائى بتوفيق ذلك الأفعى التى خطت فى حياة كل منا أعمق الآثار .

وظل الشاب يتحدث مع أبى بضع لحظات أخرى ثم حيانا وانصرف الى مائدة بعيدة وهو يختال بقوامه الفاره وشعره اللامع ومظهره الأنيق وعدنا الى متابعة فصول البرنامج واخذنا نشهد الراقصات وهن يرقصن رقصاتهن الفاجرة وقد تأودت أعطافهن وتلوت أجسادهن على وقع النغم الموزون ، وما فرغن من رقصهن وأنزل الستار حتى صعد أحد المنظمين الى المسرح وأعلن أن النمرة التالية هى انتخاب ملك وملكة الجمال من بين الحاضرين والحاضرات فى الحفلة ، وأحدث هذا

النبا ضجة كبرى أعقبها صمت مطبق ، ثم راح ضوء قوى يتحرك على الوجوه باحثا منقبا والأنظار تتبعه فى لهفة الى أن استقر على وجه أمى وهنا ثبت الضوء وظل كذلك لحظة غير قصيرة ثم تحرك باحثا هنا وهناك الى ان عاد واستقر مرة اخرى على وجه أمى وأخيرا ارتفع صوت أحد المذيعين واعلن النتيجة ، النتيجة التى اسفرت عن اختيار أمى ملكة للجمال بين الحاضرات وتوفيق ملكا للجمال بين الحاضرين وما لبث أن أعقب ذلك هدير من أصوات التصفيق والاستحسان من جميع الجوانب وبعد لحظة تقدم احد المنظمين وطلب أن يتقدما الى منصة سعادة المدير العام لتسلم جائزتيهما ، وكانت المفاجأة شديدة الوقع علينا نحن الثلاثة وكانت أمى أشدنا دهشة وذهولا وحيرة وظلت فى مكانها مرتبكة واجمة تجيل بصرها هنا وهناك فى خجل غامر وصمت مطبق الى ان تقدمت احدى السيدات الارستقراطيات واستأذنت والدى فى مرافقتها الى المنصة ، فأومأ ابى الى امى فنهضت ومشت مع السيدة وهى تجر قدميها جراً بين الصفوف وشهدتها تصعد الى المنصة عن كثب ثم تقف امام رجل مهيب الطلعة جليل المنظر وتمد يدها وتصافحه ثم تستردها بعد لحظة وبها كأس ومجموعة من الهدايا ، وعادت

بعد وقت لتأخذ مكانها بيننا فى غمرة الارتباك والخجل بينما كانت الأبصار تحدق بها وتنتهبها من كل جانب .

ومرت على ذلك أسابيع فاذا مهمة يكلف المدير العام بها ابى يمنح بعد انجازها ترقية سعد بها أبى وطربت من أجلها أمى ، ولما حمل أبى أول مبلغ ناله من هذه الترقية الى أمى قال لها — عزيزتى ثريا ، ينبغى أن نبهج أنفسنا بمتعة تدخل علينا وعلى شوقى السرور —

وبعد نقاش قر الرأى على ان نذهب جميعا الى الأوبرا لشهود أحد المسرحيات الشهيرة .

وفى خلال الشهر التالى لم يكن حديث ابى وامى ليتناول أمرا غير هذه الترقية ودراسة المشروعات والتغييرات التى ستترتب عليها ، وأنفقا فى ذلك زمنا اخذا فيه يدبران الأمر لالحاق بأحدى المدارس الثانوية ولكن لم يكد ينقضى على ذلك أسابيع حتى سقط أبى فريسة لمرض شديد الوطأة لم ينج منه الا بعد أن أتى على جميع ما أدخرناه من المال ، ولم يكن ضياع المال هو أهم النتائج السيئة التى تمخض عنها هذا المرض فقد كان هذا شيئاً تافها بالقياس لتلك الرعاية المشئومة التى فرضها (توفيق) علينا فقد اخذ منذ اليوم الأول الذى مرض فيه ابى يوالى زيارته

له فى المنزل للاطمئنان على صحته والعناية بشئونه ، وكنت أنا المكلف باستقباله وتوديعه فى كل مرة يأتى فيها إلى المنزل أما أمى فقد كانت تحرص على تجنب لقائه ولم تظهر امامه قط طوال مدة المرض على كثرة تردده وغرابة مفاجئاته ، وكان (توفيق) يزورنا على العلات لا يضرب لحضوره موعداً وكان لا يأتى الا ومعه أحمال من مختلف التحف والهدايا وكان موقفه منى فى جميع المناسبات موقف العاطف المحب الودود ، اما انا قد حاولت جهدى أن اقبل عليه وأحسن استقباله ولكن شعوراً غامضاً ودافعاً خفيا كانا يقفان دائما دون هذه الرغبة الطيبة ، فقد كان يبدو لى رغم جاذبيته ومظهره وتودده مخلوقاً شريراً وكائناً شاذا مريبا ، وتتابعت زياراته إلى ان شفى والدى وحينئذ قل تردده ثم انقطع عن زيارته ولم نعد نراه إلا فى المناسبات. وتمضى امور المنزل على ما تعودت أن تمضى عليه من النشاط والمرح والرضا لولا هذه الكآبة التى بدأت تتسلل إلى ملامح ابى ، وهذا القلق الحبيس الذى أخذ يظهر ويشتد شيئاً فشيئا إلى ان بلغ بعد شهر حدا فسدت معه أمورنا وملأ حياتنا حزناً وغما وهما ، كان يبدو عليه أن أمرا خطيراً يشغل باله ويثقل عليه ويمعن فى تعذيبه ! وكان اذا جلس معنا جلس

جامداً شاردا فى صمت مطبق كالذاهل وكنا اذا استوضحناه جلية الأمر أبى أن يفضى الينا بمكنون سره وخبيئة نفسه ، وكان ينسب كل ما يعانيه إلى بعض متاعب تتعلق بعمله ، ولكنى كنت أحس وأنا أرقبه انه يعانى لونا من الكبت الغامض يتجلى فى حركات عصبية حادة ، وافعال وأقوال يشيع فيها القلق والتعثر والاضطراب .

وذات يوم ولجت أمى غرفته وقالت وهى تأخذ مكانها بجواره — أمين ، اننى لم اعد احتمل هذه الحال ، يجب أن تبوح لى بكل شىء مهما كانت خطورته ، اننى زوجتك ومن حقى ان اعلم ما هنالك .

ولكنه ظل صامتا لايحير جوابا فغاظها منه هذا العناد وامتلأت نفسها بالفضول وقالت

اننى لا ارى سببا معقولا يبيح لك كتمان ما تعانيه عنى ياأمين ، فبالله أخبرنى فقد أكون خير معوان لك على ماتعانيه — فتحرك فى مكانه وقال فى نبرات يشيع فيها الاضطراب — لاشىء ... لا شىء ياعزيزتى —

فتأثرت من كلامه وقالت وهى تعبث فى شعره بأناملها — ألا تريد أن تفضى الى بالحقيقة ؟ —

فقال فى شبه صرخة مكتومة ـ وما شأنك بذلك ياثريا ـ
فقالت فى استعطاف ـ انى زوجتك ياأمين ، أفليس من حقى أن أعرف السبب ؟ ـ
فأجابها وهو يشيح بوجهه عنها ـ مادمت تلحين فاعلمى أنه المرض، لقد ترك فى جسمى وعقلى أثارا مروعة ـ

ولم أسمع بعد ذلك شيئا فقد نهض أبى وأغلق الباب عليها وبقيت فى مكانى دقائق خرج بعدها أبى وهو يغمغم بكلمات مبهمة فلما رآنى تظاهر بالهدوء ووقف يحدثنى فى شئونى المدرسية ثم مضى الى الخارج وعلى وجهه دلائل الألم والأستياء .

وانقلبت حياتنا بعد ذلك من النقيض الى النقيض فلم أعد أرى بشرا ولا ابتساما ولا بهجة ولا اشراقا ، وأخذت أحس صمتا عميقا مريبا لم استطع ان أفهمه او أتبين له علة ، ثم انقطع هذا الصمت حين جاءنا أبى ذات يوم وأعلننا بأنه مرتحل الى الصعيد لاداء مهمة كلفه بها سعادة المدير العام وأنها ستستغرق أكثر من أسبوع ، ولقد همت أمى وقتذاك أن تتكلم ولكنه أسرع وأسكتها باشارة من يده فلم يسعها الا أن تظهر الطاعة والامتثال .

وفى الصباح الباكر كان قد أعد عدته للرحيل ، ووقفت مع أمى على الباب نودعه ، وكان ذلك فى صباح يوم حار كئيب مرهق ، ولا أدرى لماذا أطلنا الوقوف بالباب هـذه المرة وقد تعلقت أبصارنا فى لهفة الى شبحه الممعن فى الذهاب نحو الشارع الرئيسى ، وأخيراً استدرنا واتجهنا فى بطء وتثاقل الى الداخل ، وقضينا خمسة أيام غشيتنا فيها غاشية من الوحشة والوحدة وفى صباح اليوم السادس استيقظنا فجأة على صوت طرق مريب على الباب ، فانتفضنا وأسرعنا الى الباب ونحن نشعر بخوف مبهم ، ثم وقفنا نصغى الى صوت أحد الشرطة وهو يحدثنا عن حادث مروع ... عن غرق أبى فى النيل عند بلدة سمالوط وعن وصول جثته منـذ ساعة الى المستشفى ، فصحنا فى فزع وانطلقنـا الى المستشفى فى ارتياع وجنون ، وهناك وجدناه جثة هامدة نافرة المعالم ، يحيط بها لفيف من الموظفين وعلى رأسهم المـدير العام وسكرتيره ، فلما وقعت أبصارهم علينا تقدم المدير الى أمى ومد يده اليها مواسيا معزيا ، ثم طفق يتحـدث عن أبى فأخذ يمتدح صفاته ويثنى على نزاهته ويبدى أسفه لحرمان المصلحة من كفاءته وجده ونشاطه ، وفى ختام حديثه طلب منها أن تتشجع

وأن تصبر على مصابها ثم قال لها وهو يشد على يدها أنه سيقوم بواجبه نحو أسرة الفقيد وأن عليها أن تعتمد على رعايته وعنايته الشخصية .

الفصل الثالث

ولم يكذب يونس بك راضى المدير العام لمصلحة (...) فان يده القوية السخية المسددة سرعان ما امتدت الينا فانتشلتنا من تيار المصاعب والمعاطب ، وذادت عنا أشباح الخوف والجوع والذل والتشرد ، وكان أول لقاء لنا معه بعد مصرع أبي يوم ذهبنا إلى الوزارة لتسلم المكافأة التى قررت الحكومة صرفها لنا عن العشرين سنة التى قضاها والدى فى خدمة الحكومة ، وكان ذلك فى صباح اليوم التالى لفصلى من مدرسة شبرا الثانوية بسبب العجز عن سداد المصروفات المدرسية ، ولقد أثار نبأ صرف المكافأة فى نفس أمى آمالا عريضة فظلت طول الطريق تتحدث معى عن خطط المستقبل وما أعدته له من مشروعات، وتابعنا سيرنا والظنون تطوف بأذهاننا حتى بلغنا الوزارة ، وهناك تبعنا أحد الحجاب إلى غرفة سكرتير المدير ، ولم نكن طول المدة التى انقضت على وفاة أبى قد رأينا توفيق أو سمعنا عنه فلما دخلنا الغرفة رأيناه جالساً إلى مكتبه يمسح على خصلات شعره المتموج ومن حوله أربع فتيات كن

يتضاحكن معه بصوت مرتفع ، وما أن وقع بصره علينا حتى هب واقفاً وتقدم إلى منتصف الغرفة باسم الثغر ثم مد يده وصافحنا فى رقة وهو يقول ـ مرحباً بك يا ثريا هانم .. لقد كنت منذ لحظة أحدث صديقاتى عنك وعن سيجاياك ـ والتفت إلى الفتيات وقال ـ ثريا هانم حسنين ـ

ثم أخذ يقدمهن إلى والدتى قائلا ـ شوشو هانم مختار وشقيقتها فيفى كريمتا المرحوم مختار باشا موافى الوزير السابق ، سوسن هانم حمدى ، عصمت هانم الخطيب قرينة عبد المنعم بك الخطيب ـ

فتقدمن إلى والدتى وأخذن يصافحنها باحترام ممزوج بشىء من الاستخفاف والبرود وبعد أن أخذنا مجلسنا مد فكره يده وجمع بعض الأوراق ثم استأذنهن ودخل إلى غرفة المدير ، وامتدت بين الحاضرات لحظة صمت قصيرة قطعتها شوشو قائلة وهى تتأمل وجه أمى الشاحب الزاخر بالألم والعذاب ـ رفقا بنفسك ياثريا هانم ، فما ينبغى أن يفسد الأحياء حياتهم من أجل الأموات كما تفعلين ـ

فتأوهت أمى وقالت ـ آه ، ليتنى أستطيع ... أن الخطب أفدح مما تظنين فلقد مات المرحوم ولم يترك لى ولا لوحيده المسكين

شيئاً نعول عليه فى الحياة .

فقالت أختها فيفى فى استخفاف ـ مسكينة ، كم أعجب لهؤلاء الموظفين الذين لا يعنيهم فى الحياة إلا قضاء متعاتهم ولذاتهم .

وقالت أخرى ـ لو كنت مكان زوجك لما أقدمت على الزواج قبل أن أجد ما يضمن للعائلة ما يعصمها من الهوان ، الا سحقا لهؤلاء الانانيين الذين لا يفكرون الا فى أنفسهم ـ

وقالت شوشو ـ لقد سمعت أنك جئت من أجل المعاش الذى رتب لك وانى لأرجو أن تكون الوزارة سخية معك لاسيما وقد مات زوجك أثناء تأديته لعمله ـ

فقالت أمى ـ هل لديك فكرة عن النظام المعمول به فى مثل هذه الأحوال ؟ ـ

فأجابتها ـ والله ياأختى لا أدرى بالضبط ، ولكن صبرا ... انى أذكر أنه لما مات والدى أبت الحكومة أن تشاركنا فى معاشه وتنازلت من تلقاء نفسها عن نصيبها فيه ، هذا الى جانب تبرعها بالانفاق على أخوتى الأربعة فى التعليمين الثانوى والجامعى ـ

وهنا قالت أختها فيفى ـ وليس معنى هـــذا أننا كنا بحاجة لهذه المعونة ، فقد ترك لنا المرحوم من الأموال والضياع ما يغنينا عن كل عون ، ولكن ما حيلتنا أمام الحاح الحكومة والحاف

الأصـدقاء ـ

وهنا قالت سوسن هانم متسائلة ـ دعـونا من ذلك وخـبرينى ياثريا هانم ، هل سيصرفون لك مكافأة أم معاشا ؟ ـ

فأجابتها ـ اننى لا أدرى شيئا عن هذه النظم ، وكل ما أعلمه أن المرحوم كان موظفا بعقد ـ

فقالت الأخرى ـ اذن فسيمنحونك مكافأة ... ياللزوجة المسكينة ـ

فتضرج وجـه أمى وعـلا وجهها الألم والجزع ولحظت عصمت هانم مابدا عليها من تغير واضطراب ـ

فقالت ملاطفة ـ لايحزنك ذلك ياثريا ، أن المكافأة قد تـكون أحيانا من السعة بحيث تغى بالحـاجة ـ

فقالت أمى بحسرة مكبوته ـ آه ... آمل ذلك .

وأخذن يتجاذبن أطراف الحديث فى هـذا الموضوع الى أن فتح الباب المؤدى الى غرفة المدير وظهر توفيق على عتبته ، وعندما نظرت اليـه أمى أومأ اليها ودعاهـا للدخـول فنهضت واستأذنت الحاضرات وأخذتنى من يدى واتجهت صوب حجرة المدير ، وما أن وضعنا أقـدامنا على العتبة حتى انسحب توفيق الى الخارج وأغلق الباب وراءنا .

وكانت غرفة المدير واسعة فسيحة مؤثثة بأروع أثاث وأبدعه وكان الرجل جالسا منحنيا على بعض الأوراق فلما أحس بمقدمنا استوى واقفا واتكأ على طرف المكتب بأحدى يديه ومد الأخرى الى أمى وهو يقول :

— أهلا وسهلا ثريا هانم .... تفضلى —

وأشار الى مقعد عن يمينه فجلست ثم صافحنى ودعانى الى الجلوس بجوار فاتخذت مجلسى حيث أشار فى استكانة ورحت أرمق هذا الرجل المهيب بنظرات ملؤها الاكبار والرهبه والتوقير .

وأود أن أتوقف هنا قليلا لألقى شيئا من الضوء والوضوح على شخصية يونس بك لأهمية دوره فى هذه القصة، كان الرجل فى الخامسة والاربعين من عمره ، ضخم الجسم ، قصير القامة ، احمر الوجه ، له شارب قصير مشذب وصوت عميق متزن ونظرة صارمة تنبعث من عينين زرقاوين ضيقتين متوقدتى البريق ، اما فمه فدقيق رقيق الشفتين يدل انضمامها على قوة العزيمة والقدرة على النجاح فى كل عمل يزاوله .

قالت أمى بعد لحظة — آمل ألا أكون قد تسببت فى ازعاجك ، لقد قالوا لى أن الوزارة قد انتهت من تقدير المكافأة فجئت لاستلامها ولتقديم الشكر لك على المعونة الطيبة التى أدت

الى سرعة انجازها ـ

فأجابها وهو ينظر اليها فى عطف واشفاق ـ عفوا ياهانم ... انني إلى الآن لم أقم بواجبي نحو أمين أفنـــدى ... أما فيما يتعلق بالمكافأة فسأرى الآن ماتم بشأنها ـ

قال ذلك ثم انحنى على آلة التليفون وطلب من توفيق احضار الأوراق الخاصة بالمكافأة وبعد لحظات دخل توفيق وناول المدير ملفا أحمر اللون فألقى هذا على الأوراق نظرة سريعة ثم رفع بصره وقال لتوفيق ـ ماهذا ؟ أن المبلغ أقل مما ينبغى ـ

فأجابه ـ أن المكافأة تصرف عادة بواقع نصف شهر عن كل سنة يقضيها الموظف فى الخدمة ـ

فقال الآخر ـ هذا صحيح ولكنى أرى أن المبلغ مع ذلك أقل من القيمة المطلوبة ـ

فأجابه ـ هذا راجع الى الخصم الذى أجرته الوزارة بسبب وجود تلف فى بعض الأدوات التى كانت بعهدة المرحوم أمين أفندى ـ

فقال الآخر ـ آه ... هذا شيء آخر . ولكنه على أى حال شيء يؤسف له لأنه يحرم الورثة من معظم المكافأة ـ

وحالما انصرف توفيق تتطلع المدير إلى أمى وقال

ـ أنى شديد الأسف ياثريا هانم ، أن المبلغ الذى سيصرف لك هـو ٣٪ من ٤٨ جنيه ١٣ وهو فى الواقع مبلغ زهيد ولـكن ... ـ فقاطعته أمى فى مرارة وخيبة أمل ـ ثلاثة عشر جنيها !!. أهذا كل ما تقدمونه جزاء تضحيته وتفانيه ـ

فأجابها وهـو يتأمـل جزعها ـ هذه قواعد مالية لا حيلة لنا فيها ياثريا هانم... ولـكن علام كل هذا الجزع الذى يعلو سيماءك ؟ـ

فقالت فى صوت يغص بالألم ـ كيف لا وليس لنا ما نعول عليه فى الحياة ـ

فسألها ـ هذا شىء محزن ... أليس لك أقارب ؟ـ

ـ نعم ... ولـكنهم ليسوا فى سعة وقد تقطعت بيننا وبينهم الأسباب منذ سنين ـ

فقال الرجل فى عطف وتأثر ـ لا تجزعى ياثريا هانم ، ثقى بأنه يسرنى جداً أن أقوم شخصيا بتقديم كل مساعدة ممكنة ـ

فأجابته فى حيرة وارتبـاك ـ آه ، شكراً لك ياسعـادة البيك ، ولـكن أما من سبيل للتظلم ؟ـ

فقال ـ أرجو أن تثقى بأنه لو كان هناك سبيل لما توانيت لحظة فى السير فيها لمصلحتك ، ولـكن ليس معنى هذا أن تنظرى إلى الحياة من خـلال منظار اسود ، فان هنـاك من هو على أتم

استعداد لمساعدتك والأخذ بيدك . وانى لشديد الأمل فى ان تسمحى لى بأداء واجبى نحوك ونحو ابن الفقيد على النحو الذى يرضيك .

فقالت وهى تنظر إلى الأرض لتخفى خجلها وارتباكها ـ هـذا كرم منك ياسعادة البيك ولـكنى لا أحب أن أثقل على أحد ، وسأحاول أن أجد وسيلة تعيننى على أمرى —

فقال الرجل ـ اسمحى لى أن أقـول أن واجبى نحـو الفقيد يحتم على أن أفرض عليك وعلى ابنك نوعا من الرعاية والحماية .

فترددت لحظة ثم قالت ـ إذا كان محققا أن هذه الرعاية لا تثقل عليك ، وإذا كنت تشعر أنك تريد حقا أن تقيلنا من عثرتنا فأننى أقبل مساعدتك عن طيب خاطر .

فأجابها ـ طبعـاً ... طبعاً ... اننى أريد ذلك من صميم قلبى ، والآن لنبدأ الحديث عن مستقبل ابنك ، فى أية مدرسة هو ؟ ـ

— بالسنة الأولى بمدرسة شبرا الثانوية —

— هـذا حسن ... أن ناظرهـا أحـد أصدقائى وبوسعى أن أوصى به خيراً ، ولـكن خبرينى ألا ترين أنه من الأوفق أن نلحقه بأحدى المدارس الداخلية كمدرسة حلوان الثانوية مثلا ـ

فقالت — كم يسرنى ذلك لأنه يتيح له الفرصة للتوافر على دروسه فى جو هادىء .

— حسنا ... سأنظر فى هذا الموضوع فى أقرب فرصة وسأحيطك علما بما يتم .. وبهذه المناسبة أين تقيمين الآن ؟ .

— بالمنزل رقم ٧ بشارع البراد بشبرا .

فدون الرجل العنوان فى مذكرة أمامه ثم قال . والآن أحب قبل أن تنصرفى أن أسمع منك كلمة .... كلمة تؤكد لى أنك واثقة بى وبوعودى .

فنهضت أمى وقالت وهى تصافحه . انى أثق بك ياسعادة البيك ثقة لاحد لها .

وربت الرجل كتفى بعطف ومودة ثم خطا وشيعنا عند الباب .

الفصل الرابع

والآن أستطيع أن أقفز بكم بضعة شهور لأصور لكم مبلغ ما خطته عصا يونس بك السحرية من أثر فى حياتنا ومدى ما أحدثته من تغيرات فى مصائرنا ، ولأبدأ بنفسى فأقول بأن الرجل أتاح لى من أسباب الراحة والرغد والرفاهية ما لم يكن يتاح لى من قبل وما لم يكن يخطر لى على بال ، فقد ألحقنى بمدرسة حلوان الثانوية وأحاطنى برعايته الفائقة وعنايته البالغة فكان يتعهدنى بالزيارة ويقضى لى شئونى ويوالى الاستفسار عنى ولا يدعنى أحتاج إلى أحد ، هذا ما أحدثه من التبدل فى حياتى أما ما أحدثه فى حياة أمى فقد كان أعظم شأنا وأخطر أثرا إذ ما كاد ينقضى على وفاة أبى شهور قلائل حتى عقد قرانه عليها وأنزلها زوجة معززة مكرمة فى داره الأنيقة بمصر الجديدة وأحاطها هناك بكل أسباب الترف والسعادة والنعيم ، وتمضى الأعوام بعضها فى أثر بعض فاذا أنا أجد فى هذه الحياة الجديدة بين القسم الداخلى بمدرسة حلوان الثانوية وبين دار أمى وزوجها ترفا لا يوصف ونعيما لا حد له ، وإذا بذكرياتى

عن بؤس الماضى وشقائه تضعف وتتضاءل ، وإذا كل شىء فى هذا الماضى يتمحى قليلا قليلا ويتلاشى شيئا فشيئا الا شيئا واحدا بقى كما هو لا يضعف ولا يمحى وإنما بقى مرتسما فى ذاكرتى ؟ ارتساما قويا ملحا الا هو منظر جثة أبى الطريحة فى المستشفى ومعالم وجهه المثيرة المروعة .

وكان يونس بك شديد الشغف بأمى وكانت هى من جانبها تبادله ذلك الحب وكانا يقضيان أوقاتهما دائما منذ زواجهما معا فى خلوة ولذلك قضيت صباى وفجر شبابى وحيدا واضطررت لكى أزيح كابوس الوحدة والانفراد أن أخلق لنفسى أسبابا للتسلية فكنت أمضى أوقات فراغى فى التمرن على الموسيقى وقراءة الكتب الأدبية وكتابة القصص والمقالات وغير ذلك من ألوان النشاط والهوايات المختلفة التى كان يتفتق عنها خاطرى .

وكان توفيق يتردد على الدار ويزور يونس بك وأمى فى كل وقت فى غير كلفة وقلما كان يمضى يوم لا أراه فيه معهما ، وقلما كنا نمضى الى سهرة أو نزهة الا كان رابعنا .

وتنقضى خمسة أعوام أحصل بعدها على شهادة البكالوريا ثم التحق بكلية الزراعة بالجيزة وانصرف بكليتى الى عملى فأظفر بالأولوية فى امتحان البكالوريوس ثم أرسل فى بعثة

الى انجلترة وأعود منها بعد أربعة أعوام أخرى لأقبع فى دار مصر الجديدة انتظارا للوظيفة ، وكنت فى ذلك الوقت أناهز الثالثة والعشرين من عمرى وكانت شخصيتى تقوم على طراز من العادات والأخلاق يغاير الطراز الشائع بين غيرى من شباب هذ الجيل ، فأما أخلاقى فانقباض عن الناس ونفرة يحسبها الرائى صلفا وكبرا وما هى بشىء من ذلك ولكنها الرزانة والوقار والبعد عن سفاسف الأمور والترفع عن مخالطة كل من لاتعجبنى صفاته وأخلاقه ، وزهد فى حياة اللهو واحتقار للعربدة والمجون ، وليس أدل على ذلك من أننى عشت طوال هذه السنوات دون أن أتذوق الخمر أو أمارس متعة من المتعات التى تنجم عن صحبة النساء ، وكان زملائى يرون ذلك ويعتبرونه ضربا من ضعف العاطفة وبرود الطبع ، ولكن هـــذا يخالف الحقيقة إذ كنت مخلوقا مضطرم العاطفة مرهف الحس تجيش نفسه بالمشاعر النبيلة ويتعطش قلبه إلى الحب النقى الذى لايغشى حواشيه زيف ولا يرقى اليه نفاق ، أما عاداتى وميولى فكان أبرزها ميل شديد للعيش فى احضان الطبيعة ، وشغف بمتابعة الهوايات المختلفة فى أوقات الفراغ .

ولم تكن أمى تذكر أبى فى أحاديثها مع زوجها الا نادرا ،

كأنما كانت تتحاشى أن تثقل بسيرته على قلبه . وكان يبدو لى أن اسم أبى يعذب الرجل ويقض مضجعه ثما من مرة ذكر اسمه فيها أمامه الا تسلل الاضطراب الى محياه وعرا ملامحه شىء غير يسير من مظاهر القلق والشحوب ، وكنت أرى ذلك وأحسه فلا يثير فى نفسى تساؤلا أو امتعاضا لعلى بمبلغ اندفاعه فى حب أمى وشديد غيرته الطائشة عليها ، على أن هذا القلق مالبث أن استحفل أمره بعد عودتى من أوروبا ثم تحول وتطور بعد أشهر حتى أخذ شكلا جديدا مس حياتى فى الصميم .

ففى ذات يوم كنت جالسا أقرأ له قصة كتبتها لأحدى المجلات الاسبوعية وكان الرجل جالسا أمامى فى استرخاء يتابع كلماتى فى شغف ولذة ويؤمن على بعض الفقرات فى اعجاب ورضا وسرور ، واسترسلت فى القراءة ثم استغرقت فيها استغراقا انسانى نفسى واشتمل على اشتمالا وقضيت فى ذلك وقتا ثم رفعت رأسى ونظرت اليه بغتة وهنا رأيت ماجعل الصوت يحتبس فى حلقى والكلمات تموت على شفتى ، كان الرجل جالسا وعيناه مصوبتان الى وجهى كمن يتطلع فى فزع الى شيطان ، وكان وجهه محتقنا منقلب السحنة بشع المعالم وما أن التقى نظرى بنظره حتى ارتعد فى مكانه وحاول أن يحول عينيه عنى ولكنى أفسدت

عليه محاولته وقلت له على الفور

ـ عمى ! ماذا يفزعك ؟ لماذا تنظر الى هكذا ؟ ـ

فقال وهو يجهد لامتلاك نفسه ـ لاشىء ... لاشى ياشوقى ، واذا كان بى من شىء فسببه قصتك المثيرة ولا ريب ـ

فقلت فى دهشة ـ قصتى ، عجبا ... أنها قصة مسلية مبهجة على خلاف العادة ـ

فتلعثم قائلا ـ آه ، حقا ، لا أدرى ماذا أصابنى ... يظهر اننى مصاب بوعكة ، أناشدك أن ترجىء تلاوة القصة الى الغد .

قال ذلك ثم نهض وغادر الغرفة وهو يجر قدميه جرا ، وقابلته والدتى فى وسط القاعة الخارجية فلما رأت ماعراه أسرعت اليه وصحبته الى الطابق العلوى .

ومرت أيام كان الرجل فى خلالها يتحاشى لقائى وكان اذا قابلنى أسرع وتملص منى وانصرف لا يلوى على شىء ، وكنت أرى ذلك فاجزع منه وأدهش له ، واستمر الحال على هذا المنوال الى أن انفردت بامى فى أحد الأيام وكاشفتها بالموضوع فما كان منها الا أن قالت :

ـ ليس فى المسألة كراهية بتاتا ياشوقى ... لقد فهمت كل شىء ـ فقلت ـ أناشدك أن تخبرينى بالحقيقة والا فلا بقاء لى هنا ،

خبرينى لماذا ينظر الى هذه النظرات المريبة ولماذا يتحاشى لقائى على هـذه الصورة ؟ ـ

فتريثت قليلا ثم قالت وهى تتامل سحنتى . لسبب واحد يا شوقى . . لأنك بدأت تشبه أباك شبها قويا عجيبا ، انك أصبحت صورة طبق الأصل منه وهـذا أمر يثير فى نفسه شعورا قويا من الألم والغـــيرة ـ

وساد بيننا السكون برهة ثم قلت وأنا اتطلع الى نفسى فى مرآة مقابـــلة

ـ آه ، ولـكن لاشك أنها غيرة حمقاء مخبولة ـ

فقالت ـ انك لم تجرب مثل هذا الشعور ياشوقى ولو أنك ابتليت به لالتمست له العذر ـ

وتطلعت الى لتعرف أثر كلامها فى نفسى فهززت رأسى وقلت ـ قد يكون هذا صحيحا وقد لا يكون ، وعلى أى حال فانى أرى أن الخير فى مغادرة داره ابقاء على راحته ـ

واستدرت وأسرعت الى غرفتى وأغلقت بابها على .

وفى الليلة التاليـة استدعانى يونس بك الى غرفتـه وهناك لقينى مرحبا وأجلسنى فى مودة الى جواره وقال ـ اننى أريد الـكلام معك ياشوقى فى مسألة هامة تتعلق بمستقبلك ـ

فلما أومأت له برأسي استطرد يقول ـ انني أدرى الناس بكراهيتك للوظيفة الحكومية خصوصا وقد أصبحت مرتباتها هزيلة ضئيلة لذلك كان سرورى عظيما لتوفيق فى العثور على عمل يروقك ويتسق مع ميولك ـ

فقلت ـ حقا كم يسرنى أن أعمل بعيدا عن قيود الوظيفة وجمودها .

فقال ـ وهذا ما سيحققه اشتغالك فى مزارع «رسمية هانم» ابنة عمى فى نجع حمادى ، انك لم ترها طبعا لأنها قلما تغادر مزارعها ولكن لاشك أنك سمعت عنها ـ

فقلت ـ أجل ، لقد سمعتك تتحدث عنها فى مناسبات قليلة ـ

فقال ـ أظن ذلك وستكون مهمتك ادارة مزارعها والاشراف عليها وهى مزارع غنية واسعة وستجد هناك من أبواب النشاط والتسلية ما يكفل تبديد السأم الذى تعانيه فى القاهرة ـ

فقلت ـ لست أطمع الى خير من ذلك وأنى لأرجو أن أوفق فى خدمتها وأنال رضاها ـ

فقال ـ انها أرملة على جانب كبير من الثراء والطيبة وهى تعيش هناك مع ابنتها الوحيدة عيشة هادئة ناعمة ولا ريب عندى فى أن وجودك معها سيجلب لها كثيرا من المسرة ـ

فقلت ـ هـــذا ما أرجوه ، ويسرنى أن أبدأ العمـــل فى أقرب فرصـة ـ

فقال ـ سأكتب لها غـدا ، والأرجح أنه سيكون فى مقدورك الرحيل الى هناك فى نهاية الاسبوع .

وهكذا شاءت الاقـدار أن أستقبل فى حياتى مرحلة جديدة انفرجت معها هوة سحيقة بين شخصيتى فى الماضى وبين نفسى فى مستقبل أيامى .

الفصل الخامس

وقضيت أياما أفكر فى هذه الرحلة وفى عملى الجديد وفى حياتى مع هذه السيدة وفيما عسى أن يكون لذلك كله من أثر فى حياتى المستقبلة ، ولم أكن أحاول التفكير فيما عدا ذلك فقد كانت رغبتى فى الرحيل عن هذه الدار والنأى عن أمى وزوجها تملك حواسى ، وكان هيامى بالحياة الجديدة الطلقة يستأثر بمشاعرى ويدفعنى الى التفكير فى أمر هذه السيدة وابنتها وما عساه يكون موقفى منهما وموقفهما منى بعد هذه الصلة الجديدة التى ستنشأ بيننا ، ولم يطل تفكيرى فى هذا الأمر كثيرا اذ ما كاد ينقضى الاسبوع حتى جاءنا كتاب من رسمية هانم يعلن سرورها بحضورى وترحيبها بضيافتى واغتباطها باسناد الاشراف على مزارعها الى ، وعندها لم استطع كتمان فرحى فقضيت ليلتى مغتبطا مسرورا وأنفقت ساعاتى فى اعداد حقائبى وحزم أمتعتى فلما كان الظهر نزلت وتناولت الغداء مع أمى وزوجها وعندما فرغت من ذلك وتهيأت للرحيل أقبل على يونس بك فعانقنى طويلا وصافحنى فى حرارة وهو يزودنى بنصائحه وحين جاء دور

أمى قبلتنى وضمتنى الى صدرها فى تأثر وحنان ولم تكد تفرغ من ذلك حتى غلبها البكاء ثم ولت منصرفة الى غرفتها ، ولم أكن أقل منها تأثرا ولكن ما كدت أمضى بالسيارة فى طريق الى المحطة حتى استولى على شعور غامر من الارتياح لهذا الفراق وشغلنى التفكير فى رحلتى عن كل ما أثاره هذا الوداع فى نفسى من عواطف . وبلغ من سرورى بالخروج من هذه البيئة أننى حين أتخذت مجلسى بقطار الصعيد لم أجد من نفسى رغبة لاستعراض حياتى السابقة مع يونس بك وأمى ، وكنت فى كل مرة أحاول التفكير فيها أصرف عن ذلك صرفا قويا وادفع الى التفكير فى حياتى الجديدة وما ينتظرنى فيها من سعادة ونشاط وعمل ودعة .

كان شعور من الاغتباط يملأ قلبى وأنا أشهد قطار الصعيد الذى أركبه لأول مرة وهو يمعن فى سيره صوب الجنوب وأخذت فى أثناء ذلك استعرض بعين الخيال ما سأهيئه لنفسى فى حياتى الجديدة من أبواب العمل وما سأخلقه فيها من ألوان البهجة والتسلية والمرح ، أخذت أفكر فى كل ذلك وأتمنى أن يطير بى القطار الى نجع حمادى حتى ينجلى هذا الغموض ويتاح لنفسى الوقوف من ذلك كله على غاية واضحة ، وما أدرى

أطال تفكيرى فى ذلك أم قصر ، اذ مالبثت أن استسلمت لاغفاءة طويلة غمرنى فيها موج من الأحلام لانهاية له ، وكانت الضيعة وأهلها أول شيء داعب مخيلتى ، وكان سبب ذلك مفهوما ولكن الشيء الذى لم يكن مفهوما هو هذه الرؤيا الغريبة التى رأيتها بعد ذلك والتى لم أتبين لها علة أو ادرك لها كنهها عقب يقظتى واليكم ما رأيته :

رأيت نفسى أهيم فى شوارع بلدة ريفية مصرية بين بيوت قائمة للبحث عن أبى ، وبعد زمن رأيته يمتثل بعيدا ثم يسرع مهرولا الى أحد الأزقة كمن يحاول الفرار من شبح يطارده فأسرعت وتبعته وأنا أناديه ولكنه راح يعدو بأقصى قواه الى أن بلغ شاطىء النيل وهناك وقف فوق بعض الأحجار المشرفة عليه وأخذ يدور ببصره هنا وهناك وهو يلهث ويزفر ، وكان الى جوار قدميه سلم خشبى ضيق يحيط به على الجانبين سياج قديم يهتز فى يد الهابط الى الشاطىء ، فتردد لحظة ثم بدأ الهبوط وهو يرسل أنفاسا لاهثة وزفرات محمومة فأسرعت فى أثره وأخذت أهبط درجات عديده لانهاية لها وكانت أصوات أقدامنا تحدث دويا مزعجا فى فضاء كئيب عميق مريب لايستطيع البصر أن يخترقه ، وفجأه توقف أبى عن السير ثم استدار وأطل

الى شيء فوق كتفى وهنا وقفت جامدا لا أتحرك ولا أنطق كأنما سمرت رجلاى وكأنما انعقد لسانى خوفا وذهولا ذلك اننى رأيت فى وجهه بياضا شديدا مروعا يثير الخوف فأردت أن أصيح فاحتبس صوتى وهممت أن أتحرك فخذلتنى ساقاى ثم مرت برهة مروعة استطعت بعدها أن أطلق صيحة استيقظت معها على وصول القطار الى محطة (سمالوط) نفس البلدة التى شهدت مصرع أبى منذ نحو خمسة عشر عاما ، وكان لهذه المصادفة العجيبة أبلغ الأثر فى نفسى فمددت رأسى من نافذة القطار وأخذت أجول بعينى فى أنحاء البلدة وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيت معالمها صورة مطابقة تماما لتلك المعالم التى رأيتها فى منامى ، كانت بجميع مشاهدها ومناظرها تمثل ما رأيته فى حلمى فأخذت أغمغم وأسائل نفسى فى حيرة وذهول

— ترى ما مغزى ذلك ؟

وصممت فى تلك اللحظة أن أغادر القطار للقيام بجولة فى أنحاء البلدة ولكنى عدت إلى مقعدى مؤثراً أرجاء ذلك إلى فرصة أخرى بعد استقرارى فى موطن عملى الجديد . ولم استطع أن أبرىء نفسى من حيرتها وأصرفها عن التفكير فى هذه الرؤيا العجيبة الا حينما وقف القطار فى محطة نجع حمادى وعندئذ

تنبهت لنفسى وحملت أمتعتى وهبطت إلى الأفرنج ، وكان الفناء الخارجى مقفراً من العربات فدرت أنظر هنا وهناك وإذا أنا أرى عربة يجرها جوادان تصعد الطريق وفيها رجل يلوح بيديه ناحيتى وبعد لحظات كان الرجل والحوذى واقفين بجوارى ، وكان يبدو على الرجل أنه أحد موظفى التفاتيش الزراعية وكان فى نحو الستين من عمره يرتدى الملابس الأفرنجية وتبدو على سيمائه مخايل الفطنة والذكاء فلما فرغنا من التعارف استأذنى فى حمل أمتعتى إلى العربة ثم أمر الحوذى فشرع فى نقلها معه وبعد قليل كانت العربة تنطلق بنا مسرعة صوب العزبة .

وكان زميلى يدعى « شنودة أفندى » وقد علمت منه أنه يعمل « باشكاتبا » فى دائرة المرحوم « محمد بك رفاعى » زوج رسميه هانم وأنه ورث هذه الوظيفة عن آبائه وأجداده الذين توارثوا العمل فى خدمة عائلة (الرفاعية) منذ قرن من الزمان ، كما علمت منه أن رسميه هانم قبل زواجها لم تكن على شىء من الثراء وأن كل ما تملكه الآن من ضياع وأموال آل اليها وإلى ابنتها بعد وفاة زوجها ، وقد ذكر لى أيضاً أن والدها المرحوم الشيخ عبد الغفار متولى ليس شقيقاً لوالد يونس بك كما ظننت وأنما أحد أخوته لأبيه .

وكانت العربة حين فرغنا من الحديث فى شئوننا قد بلغت منتصف الطريق وأخذت تندفع مسرعة فى طريق زراعى تحيط به المزارع الشاسعة على الجانبين وبعد دقائق التفت إلى شنودة أفندى وقال :

ـ انى أرجو أن تجد فى العزبة مراتع كافية لنشاطك وهواياتك.

فقلت وأنا اتأمل المزارع المترامية

ـ ان كل ما أرجوه أن أكون عضوا عاملا فى هذه الضياع الكبيرة ـ

فقال الرجل ـ هذا ما سيتيحه لك العمل هنا لأن جميع المزارع فى حالة تستحق العناية وتستوجب الاصلاح .

فقلت مستفسرا ـ وما منعكم من ذلك والثروة عندكم لاحد لها ؟

فأجابنى فى أسف ـ أن السبب فى ذلك يرجع إلى خلوها من اليد القوية الحازمة ، وربما كان السبب المباشر فى تدهورها هو عجزنا عن ايجاد من يحل محل الشيخ (مروان) فى شياخة العزبة .

فسألته ـ وأين ذهب الشيخ مروان ؟ ـ

فأجابنى فى حسرة

ـ أنه نزيل الليمان منذ ست سنوات ـ

ـ وما الذى قاده إلى هذا المصير ؟ ـ

ـ قاده الى ذلك عاملان أولهما اخلاصه المتناهى لأصحاب العزبة وثانيهما استهتاره الشديد بأرواح الناس ـ

فقلت فى امتعاض

ـ إذن فهو أحد سفاحى الصعيد .

فقال ـ إلى حد ما ، ولقد كانت له سطوة تخيف منه ويعمل لها فى البلاد المجاورة الف حساب ، على أنه والحق يقال لم يلجأ مرة إلى الفتك والبطش الا كان ذلك فى سبيل الدفاع عن حقوق رسميه هانم وحماية مصالحها ، فلما حدث النزاع بينها وبين جارها « شعلان بك » بسبب الرى لم ير الشيخ مروان مفرا من اللجوء إلى القوة فبطش بالرجل وأعوانه فى مجزرة بشرية انتهت بالقبض عليه ومعاقبته بالأشغال الشاقة المؤبدة .

فقلت ـ هذا شىء يؤسف له ، كم سنة قضاها فى خدمة رسمية هانم؟

فأجابنى ـ خمسة عشر عاما أو يزيد ـ

ـ خدمة طويلة .. ومن حق رسميه هانم أن تأسف على ما أصابه وأن كنت أنا شخصيا لا آسف على مصير رجل كهذا ـ

ـ لقد حزنت الهانم على ما ألم به أشد حزن كما قامت بواجبها نحو زوجه وابنته الوحيدة وكرست جهودها لسعادتها فمنحتها

أرضا يستغلانهـا وأنزلتهما دارا خاصة بهما فى احـدى المـزارع وأشركت ابنة الرجل مع ابنتها فى التربية والتعليم وسوت بينهما فى كل شىء حتى أصبحتا رفيقتين صديقتين لا تحس بينهما فرقا ولا اختلافـا ـ

فقلت وأنا أرقب دور العربة عن كثب

ـ يظهر أن رسمية هانم سيدة طيبة القلب .

فقال فى حرارة

ـ أنها سيـــدة نبيلة للغاية ولا شك أنك ستقرعينا بالعمل عندهـا ـ

وكانت العربة فى ذلك الوقت قد انعطفت فى منعرج ثم سارت تتهادى فى بطء فى طريق ملتو تحف به أشجـار مرتفعـة وبعض مساكن ريفية مبعثرة هنـا وهنـاك ، ومرت بعد ذلك بسور مرتفع يحـوط دارا مكونة من طـابقين فالتفت إلى صاحبى وقلت وأنا أشير اليها .

ـ دار رسميه هانم على ما أظن .

فأجابنى ـ كلا ، فلا زال أمامنا لبلوغها بضعة أميال قليلة ، أما هذه فدار زوجة الشيخ مروان وابنته ـ

ولم يكد يفرغ من عبـارته حتى بلغ سمعى غناء عـذب رخيم لم

استطع معه كتمان دهشتى فقلت وأنا أرهف السمع مأخوذا

ـ صوت من هذا ؟ ـ

فابتسم وقال ـ آه ، هذا صوت « حورية » ابنة الشيخ مروان ـ وفى اللحظة التالية برز شخص من باب الحديقة ، وكانت فتاة تناهز العشرين من عمرها لها قوام ممشوق وشعر فاحم مسترسل وعيون واسعة وادعة وجبين وضاء يبين عن سمرة حمراء جذابة ، وكانت ترتدى ثوبا أبيض اللون تبدو فيه كطالبات المدارس ورغم مظهر البساطة الذى كان يشيع فى هندامها وزينتها فقد كانت ملامحها تنم عن براءة ناضرة وملاحة فاتنة وجاذبية يزيد فى روعتها مسحة من الحزن تنسكب على وجهها انسكاب الألم العميق على ملك هبط من السماء .

وعندما وقع بصرها علينا قطعت غناءها فجأة ووقفت تنظر الينا حائرة مترددة وهنا رفع شنوده افندى يده وحياها قائلا :

ـ طاب يومك ياحورية ... هذا شوقى بك المهندس الجديد ـ

فتطلعت الى بعينيها الواسعتين ثم أطرقت خجلا وقالت فى صوت موسيقى طروب

ـ أهلا وسهلا ـ

قالت ذلك ولم تزد ثم استدارت ودلفت الى الداخل وتوارت

عن الأنظـــار .

واستأنف شنودة افندى حديثه قائلا :

ـــ انها فتاة نادرة المثال فى ذكائها فما من امتحان أدته الا أحرزت فيه قصب السبق على جميع زميلاتها ـ

فسألته ـ أما زالت طالبة ؟ ـ

ـــ كلا ... لقد انقطعت عن مواصلة الدراسة بعد حصولها على شهادة البكالوريا وكذلك كان الشأن مع (فاتن) كريمة رسميه هانم ـ

ومضت العربة فى طريقها و بصرى متجه الى باطن نفسى لا الى ماحولى ، كـنت أتأمل فى عجب نشوة سعيدة تضطرم فى صـدرى وقشعريرة ممتعـة تسرى فى كـيانى وتوالت على الدقائق وأنا مستسلم لشعور لذيذ غامر حتى قطع على تأملاتى منظر خلب لبى فقـد اصطبغ الأفق الغربى بحمرة الشمس الغـاربه وغرقت الحقول فى ذوب من اللهب المتوهج توهج النار الحـامية وبدت طلائع الفـلاحين تنشـد وتغنى وهى عائدة الى ديارها ، وظلت العربة تختال بين مواكبهم حتى بدت أمامنا دار فسيحة أنيقه تحيط بها حـديقة واسعة نضرة ، وكان ينتظرنا عنـد بوابتها رهط من العمال والفـلاحين والخفراء فلما وقعت أبصارهم علينا أسرعوا الينا ووجوههم تبرق سرورا وامتدت غابة من الأيدى الىّ محيية

مصافحة فهبطت وصافحتهم جميعا ثم تبعت شنودة افندى ومضيت الى الداخل . وكانت ربة الدار تنتظرنى على عتبة الدرج الداخلى وبجوارها ابنتها « فاتن » وكانت السيدة فى نحو الخمسين من عمرها ذات طلعة نبيلة وقوام نحيف ووجه شاحب وكانت سيماؤها تدل على التحفظ ونبل الطباع ورجاحة العقل وكرم النفس أما ابنتها فقد كانت تناهز العشرين لها وجه متورد مكتنز وعينان زرقاوان ضيقتان وقامة قصيرة وجسم بدين يفيض صحة وحيوية.

قالت أمها بعد أن حيتنى تحية حارة رقيقة

— هذه فاتن .. ابنتى الوحيدة —

فتقدمت الفتاة وصافحتنى وهى تتأملنى وتبتسم ابتسامة خاصة وعندما أخذت يدى هزتها هزة من تريد وزن نصيب صاحبها من الرجولة ولم أبال بهذا ولم أكترث له لعلمى بمبلغ الفضول الذى ينتاب الفتيات اللاتى يعشن فى مثل هذه العزلة ولكنى على أى حال أحسست فى أعماق نفسى بنفور غريب يمازجه شىء غير يسير من الاشمئزاز نحو هذه الفتاة المترهلة الجسم المتوثبة الغريزة .

وعندما اتخذنا مجلسنا فى حجرة الاستقبال قالت رسميه هانم

— كيف حال يونس بك ... لقد سمعت عن غرامك بالحياة الريفية وانى لأرجو أن تجد هنا مايسرك —

— شكرا لك وأنى لآمل أن أوفق فى خدمتك ـ

— ان شاء الله ، وأرجو أن تعلم أنه يهمنى جدا أن استمع الى مقترحاتك ـ

— اننى أضع نفسى وتجاربى تحت تصرفك عن طيب خاطر ـ

— شكرا ... الواقع اننا فى مسيس الحاجة الى معونتك الفنية ولذلك لقيت فكرة يونس بك منى كل ترحيب ، على أن مهمتك لن تكون شاقة فان معظم العمال هنا على أتم استعداد لتنفيذ تعليماتك فى سبيل النهوض بالعزبة ـ

— حسن جدا ... هذا من شأنه أن يسهل مهمتى ويعيننى على تحقيق أمنيتك ـ

فقالت ـ اننى كبيرة الثقة فى نجاحك والآن تستطيع أن ترافق شنوده افندى الى الدار التى خصصت لك وسيكون من دواعى سرورى أن ننتظرك لنتناول العشاء معا .

وهكذا انتهت مقابلتى الأولى لرسميه هانم وخرجت مع شنودة افندى وقصدنا الى الدار الأخرى للاستعداد لوليمة العشاء ، وكانت الدار تقع على بعد ميل من دار صاحبة الضيعة وكانت مكونة من طابقين وتحيط بها حقول مترامية الاطراف ، وكان كل ما بها من أثاث يبدو جديدا أنيقا لامعا كأنه أحضر

منذ ساعة فأخذت أطوف بهذا الفردوس ومن ورائى شنودة افندى والخادمة التى خصصت لخدمتى وقضيت فى ذلك ساعة ثم ابدلت ثيابى وخرجت بعد وقت ميمما شطر الدار الأخرى تلبية لدعوة مضيفتى .

الفصل السادس

وعندما نفذت أنا وشنودة أفندى إلى غرفة الاستقبال كانت « فاتن » جالسه إلى البيان وقد انحنت أمها على مقربة منها وهى تصغى اليها فى شغف فلما شعرتا بمقدمنا كفت الفتاة عن الايقاع ونهضت مع أمها للترحيب بى .

قلت وأنا آخذ مجلسى بجوار البيان

ـ من دواعى سرورى أن أجد هنا من يجيد العزف بهذا الاتقـــان ـ

فابتسمت أمها دلالة على الرضا وقالت :

ـ حقا ، أن فاتن موسيقية بارعة ـ

فقلت ـ إذن أرجو الا تبخل علينا ببعض الألحان التى تجيدها ـ

فقالت أمهـا ـ طبعاً ... هيا يا فاتن واسمعينا شيئاً من ألحانك الجديدة ـ

فترددت الفتاة وتصنعت الحياء لحظة ثم قامت وأخذت تعزف على البيان فى براعة أذهلتنى فلما انتهت قلت لها

ـ أنك مدهشة حقاً يا آنسة ، لعلك تجيدين الغناء أيضاً ؟ ـ
فأجابتنى ـ كلا ... انما أجيد العزف فقط أما الغناء فله بطلته التى لا تجارى ، وأعنى بها صديقتى حورية ـ
وقالت أمها ـ حورية هذه هى ابنة شيخ العزبة السابق وأعتقد أن صوتها سيعجبك للغاية ـ
فقلت ـ ما أبدع هذا ، انه شيء يدعو إلى الاغتباط حقاً ـ
وفى تلك اللحظة دخل أحد الخدم ودعانا لتناول العشاء فنهضنا جميعاً وتوجهنا إلى غرفة فسيحة تتوسطها مائدة كبيرة أخذ كل منا مجلسه حولها ، وكان الطعام فاخراً أعد اعداداً يثير الشهية ، وكان لابد أن تتحدث فتحدثنا ورحنا نتكلم عن الحياة فى القاهرة وفى لندن وفى الريف وأخذنا نمزج الأدب بالسياسة والنوادر بالأقاصيص .

وعندما استلقيت على فراشى بعد هذه السهرة أحسست براحة غريبة تسرى فى كيانى ونشوه غامرة تنسكب فى فؤادى ولم أكد أغمض عينى حتى استغرقت فى نوم عميق لذيذ لم استيقظ منه إلا فى الصباح .

* * *

واستقبلت الصباح نشيطاً غاية فى النشاط مبتهجا أشد

الابتهاج وأخذت انتقل بين أرجاء دارى الأنيقة وأطوف بحجراتها وأفحص محتوياتها واتحدث إلى نفسى بما ينتظرنى فى هذه البيئة الجميلة من سعادة وما سيتاح لى فيها من نعيم ، وجاءتنى الخادمة بطعام الفطور فتناولته مغتبطا مسروراً ثم خرجت وركبت عربة وانطلقت بها إلى المزارع فى جولة تفتيشية ، وكان على لكى أفعل ذلك أن أسير فى خط دائرى يبدأ من دارى وينتهى عند مشتل كبير فى الطرف المقابل من العزبة ، فمضيت فى طريقى وألهبت ظهر الجواد فأخترق الوادى ومضى ينهب فى الأرض نهبا ، ورآنى الفلاحون فى حقولهم فدعاهم الشعور بوجودى إلى التوقف لتحيتى فشددت عنان الجواد وأخذت أسير بين جموعهم على مهل أحادث هذا مرة وذلك أخرى وقضيت ساعات أجول هنا وهناك استحث الفلاحين واتبسط معهم والقى اليهم بتعليماتى وارشاداتى وأتلقى شكاواهم وعند الظهر تناولت الطعام معهم فى مساكنهم ثم استأنفت الرحلة قرب الأصيل فى الطريق المعتاد ، ومضيت فى هذا الطريق الى أن بلغت منعطفاً فأبطأت قليلا ومضى الجواد يسير خببا ، وكان هذ المنعطف هو نفس المنعطف الذى قابلت فيه حوريه أمس ولكنه بدا لى هذه المرة أكثر بهاء وجمالا

وبينما أنا أجول بعيني هنا وهناك إذ حمل إلى النسيم فجأة صوت غناء يموج رخيما عذبا فى الهواء ، فدرت أنظر حولى بلهفة وحينئذ وقع بصرى على حورية بقامتها الطويلة الرائعة بين الأشجار ، وكانت فى ذلك الوقت تحاول اجتياز جسر يؤدى إلى باب دارها وفى اللحظة التالية لمحتنى وأنا أرقبها عن كثب فانقطعت عن الغناء بغتة وحاولت أن تسرع إلى الباب فأسرعت واعترضت طريقها وقلت وأنا اتأملها فى نشوة سعيدة كأننى اتأمل أثرا فنيا خالدا

— لماذا تتسللين هكذا يا حورية ؟

وسكت لحظة ثم قلت — ألا تعرفيننى ؟ —

فأسبلت جفونها واصطبغ وجهها بلون الدم وتلعثمت قائلة

— بلى ، ألست المهندس الجديد ؟ —

فقلت — نعم ... أنا هو ، أتدرين يا حورية أن لك صوتا نادرا —

فقالت بصوت ناعم وهى مطرقة أرضا كالطائر الوديع — أحقا تقول ؟ —

فقلت — بكل تأكيد ، ان لصوتك مميزات تعبر عن روح خاصة وفى اعتقادى أنه لا ينقصه شىء كثير ليكون آية خالدة —

فابتسمت ابتسامة حلوة ورنت الى رنوه جذابة وقالت :

ـ أراك تبالغ ـ

فقلت ـ أنك لا تدرين مبلغ المامى بأصول الموسيقى . وأننى لا أبالغ إذا قلت أن صوتك فى حلاوته ورخامته يبز جميع الأصوات التى سمعتها فى حياتى ـ

قالت ـ اذن فانت موسيقار ـ

فقلت ـ موسيقار هاو ، وأن روحى لتؤثر الموسيقى على غيرها من سائر الهوايات التى أمارسها ـ

فسألتنى ـ وأى نوع آخر من الهوايات تتعشقه ؟ ـ

قلت ـ كتابة القصص ـ

قالت ـ أحقا ؟ كم أهوى قراءة القصص ـ

فقلت ـ اذن أرجو أن تسمحى لى باهدائك مجموعة منها .

ـ اننى أقبل ذلك بكل سرور ـ

قالت ذلك ثم حيتنى وابتعدت عنى وتوارت خلف السياج . وظللت فى مكانى ذاهلا وقد ملكت على نشوتى بحسنها كل حواسى ، وأخيراً تنبهت لنفسى فرفعت رأسى ورمقت نوافذ دارها بنظرة طويلة ثم انطلقت صوب دارى .

وفى تلك الليلة لم يزر النوم جفنى فقد كنت أحس ينبوعا جياشا من الحياة يتفجر فى دمائى ، وبسمة حلوة من

الأمل تتلألأ كالصبح المضيء فى خيالى ، وقضيت سواد ليلى نهبا لما يدور فى رأسى من أمانى وما يتجاوب فى أعماق قلبى من نغم وما يسرى فى كيانى من شوق ووله وهيام ، حتى إذا كان الفجر قفزت من فراشى وأمسكت بقلمى ورحت أكتب .. رحت أسطر قصتى المعروفة « النظرة الأولى » .

وفى الصباح اذ انطلقت الى عملى لم أحس هـذا الضيق الذى كان يخيم عادة على صـدرى وانما نعمت بهذا الشيء الذى يسمونه السعادة الحقة ، هذه النعمة الكبرى التى لم أحس لها من قبل وجـود فى حياتى ، ولم يـكن لها مذاق فى فمى ، وانفقت بين العمال والمزارعين وجه النهار وأنا ممتلىء حيوية ونشاطا وعندما أوشكت على الفراغ من عملى جاءنى رسول من قبل رسميه هانم لدعوتى لتناول العشاء معها فى دارها وكان ذلك قرب المساء فأسرعت وأنهيت عملى وأخذت طريق فى الاتجاه المؤدى الى دار حورية وعنـدما اجتزت المنعطف ارتفع بصرى برغمى الى احدى النوافذ وما كـدت ألمحها وهى منحنية على النافذة حتى وجف قلبى وتعلقت عيناى بها كأنما تبتغيان أن تلتهاها التهاما ، وكانت فى هـذه المرة تبـدو أكثر اهتماما بزينتها وعناية بهندامها وشعرها ، وعندما رفعت يدى لها بالتحية قالت بصوتها العذب

الحنون

ـ مساء الخير ... هل أحضرت القصص ؟ ـ

فقلت ـ كلا ... لقد نسيت فهل يروقك أن أحضرها غداً ؟ ـ

فقالت ـ اننى مدعوة لتناول العشاء الليلة عند فاتن و بوسعك أن تجلبها معك هناك اذا لم يكن لديك مانع ـ

فقلت ـ بكل سرور ـ

ـ الى اللقـــاء ـ

وأسرعت وأنهت الوداع بهذه الكلمة ثم اختفت تاركة وراءها أثرا عميقا نحتته فى قلبي نحتا .

الفصل السابع

وعندما وصلت دار رسميه هانم فى المساء كان كل شىء فى الحديقة والدار يوحى بالفرح والنشوة ، وما كاد خبر وصولى يبلغ مسامع أهل الدار حتى خف الجميع لاستقبالى والاحتفاء بى ، وكانت رسميه هانم وابنتها أول من تقدم لتحيتى عند مدخل القاعة الكبرى وعندما قادتنى الأم الى غرفة الاستقبال ابتسمت وقالت

ـ هل تعرف ياأستاذ شوقى أننى أعددت لك مفاجأة سارة ـ

فقلت فى ابتهاج

ـ الواقع يارسميه هانم أننى أحس أن حياتى هنا ستكون سلسلة من المفاجئات السعيدة ـ

فقالت ـ هذا ما أتوقعه ، اذ لاشىء ينقصنا جميعا هنا لكى نكون سعداء وأرجو أن يكون هذا هو شعورك دائما ـ

فقلت ـ اننى لا أبالغ اذا قلت اننى عاجز عن وصف شعورى أمام هذه السعادة التى غمرتنى وطغت على ـ

وما كدت أتم عبارتى حتى ظهرت على عتبة غرفة الاستقبال

امرأة متوسطة القامة جميلة المحيا فى نحو الأربعين من عمرها وهنا تحولت رسميه هانم وقالت تقدمها الى

ـ السيدة رتيبة .. زوجة الشيخ مروان ـ

ولم تكد المرأة تتحرك لتحيتى حتى وقع بصرى على حورية بجوار مصراع الباب وحينئذ قالت رسميه هانم

ـ هذه هى المفاجأة ... تعالى ياحورية لأقدمك للأستاذ شوقى المهندس الجديد ـ

فاقتربت الفتاة وهى تبتسم فى عذوبة وخجل ورقة ثم صافحتنى بصورة استشعرت منها رغبتها فى عدم البوح بما دار بيننا ، فقلت وقد ازدادت ضربات قلبى سرعة وعنفا

ـ مرحبا بك ياآنسة ... لقد كنت شديد الرغبة فى التعرف اليك لما سمعته عن مواهبك ـ

فخفضت بصرها وقالت :

ـ شكراً ... منذا الذى حدثك عن ذلك ؟ ـ

فقالت فاتن وهى تلتصق بها فى مودة ظاهرة

ـ أنا الذى حدثته عنك وكذلك أمى ولا شك أننا لم نذكر غير الواقع .

وقادتنا ربة الدار الى غرفة الاستقبال وهناك مكثنا وقتا تجاذبنا فيه أطراف الحديث فى موضوعات شتى الى أن دنت ساعة العشاء وحينئذ قمنا والتففنا حول المائدة وأخذنا نتناول مالذ وطاب من شهى الطعام ولما فرغنا من ذلك انتقلنا الى شرفة فسيحة تطل على حديقة الدار الفيحاء وأخذنا فى حديث طويل عن الموسيقى والأدب والشعر والرسم والغناء وانتهزت الفرصة فقدمت لفاتن وحورية القصص التى كنت قد أحضرتها معى وطلبت منهما قراءتها فى أوقات الفراغ . فابتهجتا لذلك أيما ابتهاج واشتركتا معنا فى الحديث فأكسبتاه بهجة ومرحا واشراقا، وكانت الليلة نموذجا رائعا لليالى الريف المصرى الجميل، فقد أطل القمر من السماء وأخذ يتصاعد فى الأفق متوهج اللون وسجا الليل لا يتخلل سجوه غير حفيف النسيم وهو يداعب الزهر والشجر وتردد أصوات جميلة من حناجر الطيور الراقدة فى أعشاشها ، وبعد لحظات طلبت رسميه هانم من حورية أن تغنى وما أسرع ما توجهت فاتن الى إحدى الغرف وعادت بعد لحظة وبيدها كمان ثم جلست بجوار صديقتها وبدأت تمدها بالعون من أنغام كمانها ، وفجأة قطع السكون غناء رخيم تابعته قلوبنا فكادت تنقطع عن الخفوق كلما رق ، وتشب من الصدور كلما

علا واشتد ، وظلت حورية تشدو بصوتها الشجي ونحن نترنح من حلاوة مانسمع وجمال مانشهد الى أن بلغت حدا استسلمنا معه الى نشوة غامرة وارتفعنا به الى عالم مسحور . وما أيقنت حورية أنها اشبعت كل حاسة من حواسنا بسحر غنائها وأسكرت قلوبنا بعذب ألحانها حتى تخافتت بصوتها قليلا قليلا حتى سكتت ، هنالك امتدت بيننا لحظة صمت قصيرة من أثر ماعرانا من دهشة واعجاب وذهول وما كادت تنحسر هذه الدهشة حتى ألهبنا الأكف بالتصفيق وكنت أشد الجميع نشوة وطربا فقلت لها وأنا أشد على يدها

ـ ما كنت أحسبك بارعة الى هذا الحد ياحورية ـ

وهنا قالت فاتن وهى ترنو اليها باعجاب

ـ أتريد أن تستمتع حقا بغنائها ؟ ـ

فقلت وأنا مستغرق فى حلم لذيذ

ـ طبعا ... طبعا ـ

فقالت وهى تبتسم لصديقتها

ـ اذن عليك أن تترقب الليالى القمرية على ضفاف النيل ـ

فقلت فى جذل ـ أحقا ؟ لا شك أن ذلك يضاعف من جمال صوتها وروعته ـ

فقالت فاتن ـ بكل تأكيد فصوتها فى هـذه الحالة يعـلو على كل وصف ـ

وهنا قالت رسمية هانم

ـ إذن نرجو الا تفوتكم هذه الفرصة غدا ـ

فقالت ابنتها ـ هذا ما سأعد له العدة من الصباح ـ

وسكتت لحظة ثم استطردت تقول ضاحكة

ـ ولـكن ماذا سنتقاضاه منكم فى مقابل هذ المتعات ؟ ـ

فضحكنا وضحكت أمها وقالت

ـ أطلبي ما شئت يافاتن ولـكن إياك أن تغالى ـ

فضحـكت فاتن وأجابتهـا

ـ لن نغالى ، كل ما نطلبه بضعة دروس خصوصيه يعطيها لنا الأستاذ شوقى باعتباره خبيراً فى صناعة المربيـات والشراب والألبان ـ

فابتسمت أمها وتطلعت إلى وقالت :

ـ ما قولك فى هذا ؟ ـ

وكنت فى تلك اللحظة واقعاً تحت تأثير قشعريرة ممتعة فتنبهت إلى نفسى وقلت

ـ أننى أرحب بذلك وأقبله من صميم فؤادى ـ

فقالت فاتن ـ حسنا ... أذن نبدأ من الغد ... أليس كذلك يا حورية ـ

فأجابتها ـ كما تشائين يافاتن ـ

وعندما أوصلت حورية وأمها فى نهاية السهرة إلى دارهما لم أجد فى نفسى القدرة على الكلام فلما مدت يدها لمصافحتى ضغطت عليها ثم لفظت ببضع كلمات لاهثة وودعتها وانصرفت

ومن ذلك اليوم أصبحت « حورية » شغلى الشاغل فكنت أمر على منزلها أثناء خروجى وعودتى وما أكثر ما كنت أخرج وأعود ، وكانت الدروس الخصوصية فرصة طيبة لى ولها فاشتد اتصالى بها وتعددت مقابلاتى لها وكثر انفرادى بها دون أن يتعرض أمرنا لريبة أو يدعو إلى شبهة أو يثير فى نفوس من حولنا وخاصة فاتن أى عاطفة سوء ، واشتد بمرور الزمن اعجابى بها وحبى لها فقد كانت الفتاة مثالا للطيبة والنبل والحنان ، وكان قلبها عامرا بالطهر والعفة والنقاء ، وكان جمالها من ذلك النوع الذى يوحى بالعبادة أكثر مما يوحى بالحب ، ولقد حاولت أكثر من مرة أن أصارحها بهواى وبرغبتى فى الزواج بعد أن استيقنت أنها تلقى حبى بحب مثله ، ولكن عاملين اثنين كانا دائما يردانى عن هذا الاعتراف

ويصدانى عن تلك المصارحة صدا ، فأما أحد هذين العاملين فكان وجود فاتن بيننا ، ذلك أن عاطفة الفتاة نحوى ما لبثت أن تحولت من أعجاب بمواهبى إلى اعجاب بشخصى فكانت تتعمد لقائى مصبحة ممسيه وكانت تزورنى على العلات فى مقر عملى إذا ابطأت فى زيارتها فى دارها ، وكانت حوريه ترى ذلك فتلقاه لقاء حسنا نقيا، وتجد فى الأغضاء عنه والصبر عليه وفاء لصديقتها واشباعا لعاطفة الحب التى تكنها لها . هذا أحد العاملين وأما العامل الآخر فكان ترددى الذى ولده في نفسى المصير الذى انتهى اليه أبوها واشمئزازى من سيرته بين الناس ، لذلك ترددت كثيرا فى الأقدام على هذه المصارحة ولم أر بدا آخر الأمر من الكتمان إلى أن يجد ما يزيح ما أمامى من عقبات وما يمحو مانقش فى قلبى نحو أبيها من اشمئزاز ونفور .

ومرت على ذلك عشرة شهور سارت فيها الأيام فى طريقها على هذا المنوال الى أن جاء يوم مرضت فيه رسمية هانم مرضا عضالا استدعى ضرورة سفرها إلى القاهرة لاستشارة أحد الاخصائيين ، وكان الاتفاق قد تم على أن تنزل ضيفة على يونس بك طول مدة العلاج فلما جاءها كتابه الذى أبدى فيه ترحيبه بها أعدت عدتها وسافرت برفقة فاتن وشنودة أفندى .

الفصل الثامن

خلا الجو لى ولحورية فبدأ حبى لها يثقل على وأخذ ولعى بها يحيط بى ويغمرنى ولكنى برغم ذلك تمالكت نفسى فلم أعلن لها حبى ولم أبح لهـــا برغبتى الجياشة فى الزواج منها، واستمر الحال على ذلك شهرا حتى كان هذا اليوم الذى أقبل فيه أحد الخفراء يحمل لى رسالة من رسميه هانم تنبئنى بالخبر المذهل... خبر خطبة فاتن إلى توفيق وقرب عودتهم إلى العزبة، هنالك أحسست هذا التردد بين الابتهاج والانقباض وبين الفرح والحزن وبين الرضى والسخط : ولعلى لو سئلت يومئذ عن سر هذه العواطف المتباينة التى ازدحمت بها نفسى لما عرفت بم أجيب ، أكان ذلك لكراهيتى الشديدة لتوفيق أم كان اشفاقا على فاتن أم كان لشعورى بزوال ما أمامى من عقبات وقرب فوزى بمن أحب .

وعندما لقيت « حورية » بعد ساعة وأعلنت اليها النبأ اتصلت بيننا لحظة صامتة لم نعرف فيها كيف نقول ثم قطعت

حبل الصمت وقلت :

ـ انني أعرف الخطيب تمام المعرفة وكل ما استطيع أن أفعله هو أن ابتهل إلى الله أن يكتب لفاتن التوفيق معه ـ

فسألتني ـ وهل يونس بك على علم بأمره ـ

قلت ـ نعم .. ولكنه يثق به مع ذلك ثقة لا حد لها ـ

ـ إذن فأنت تتوقع أن تشقى فاتن معه ـ

ـ لا استطيع أن أجزم بذلك ، فقد تستطيع بجهودها أن تقومه وتبدله خلقا آخر ـ

ـ الا ترى أن أكتب اليها لأحذرها ـ

ـ كلا... لا تفعلي... من يدري .. ربما كان في ذلك سعادتها ـ

وبعد هذه المقابلة تطور حبي لحورية وزاد عنفاً وقوة وبدأت أشعر بأنني أعيش في دنيا جديدة من خلق عينيها ، وأخذت الغيوم التي ولدتها سيرة أبيها في قلبي تتبدد تحت أشعة نظراتها الفاتنة وبسماتها المتألقة ، وابتدأت أفكر جديا في ربط مصيري بمصيرها ، وقضيت ليال أفكر وأفكر إلى أن اقتنعت بأنها المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يمنحني السعادة ويعلمني جمال الحياة ونفاستها .

وذات يوم عند الأصيل صحبتني في نزهة على الشاطىء

وكان الجو صحـــوا والنسيم يهب عليلا والشمس تبعثر أشعتها الذهبية على الحقول كلثمات رفيقة حانية وأخذنا نمعن فى السير جنبـا إلى جنب كروح وحاديه وساد صمت وسكون كنت فى خلالها أرقب انوثتها الـكاملة المستوفزة وهى تطفر من جسمها وروحها وقطعت الصمت بعد لحظة قائلا :

ـ والآن ... أظننى أستطيع أن أفاتحك ياحورية فى أمر هام يمس مستقبلنـا معـا .... أننى أود من صميم قلبى أن تـكونى زوجـــة لى ـ

فتألقت عيناها وارتسمت على وجهها مظـاهر الفـرح والخجل والدهشة ثم أطرقت لحظة مفكرة وحين رفعت رأسها كانت ملامحها تنم عن ألم وعذاب وحزن دفين وخيل الى اننى أرى الدموع فى عينيها فهالنى الأمر وسألتها

ـ ماذا دهاك ! أيحزنك ذلك يا حورية ؟

فقالت فى صوت متقطع خافت

ـ كلا .. فما أسعدنى بذلك .. ولـكن أموقن أنت أن زواجك منى سيسعدك ؟ ـ

فدهشت وقلت ـ بكل تأكيد ياعزيزتى ، هل تشكين فى حبى ؟ ـ فقالت ـ ما شكـكت فى ذلك قـط ، ولـكن المسألة ليست

مسألة الحب وحده وأنما ... ـ

وسكتت فحملقت فى وجهها استقرىء معارفها وقلت

ـ ماذا تعنين ؟

فقالت فى أسى ـ أعنى اننى لست جديرة بك ـ

فقلت محتجا ـ كيف يخطر لك هذا الكلام ؟ ـ

فقالت ـ لا تخادع نفسك يا أستاذ شوقى ، اننى أدرك نفسيتك تمام الادراك ـ

فقلت ـ كيف ؟ أفصحى ـ

فقالت والدموع تسيل على خديها

ـ أننى لا أليق بك لسبب أنت تعلمه حق العلم ـ

فقلت ـ الحق أننى لا أفهم ... ما هو ؟ ـ

فقالت ـ أنه نفس السبب الذى أقض مضجعك وحملك على التردد فى هذه المصارحة طول هذه المدة ـ

فسألتها ـ ما ذا تقصدين ؟ ـ

فقالت وهى تنظر إلى بعيد

ـ أبى ... أننى أعلم مدى ما تثيره سيرته فى نفسك من امتعاض ونفـــور ـ

فقلت ـ أنا لا أنكر ذلك ، ولكن ما ذنبك أنت ياحورية ؟ ـ

فقالت ـ أنه أبى ومهما اختلف الناس فى الحكم على تصرفاته فأنى لا زلت أحبه وأجله وأقدس أبوته ـ

فقلت ـ هذا ما لا تلامين عليه ، ولكن يجب أن تعلمى بأننى وأن كنت استنكر الاثم والاجرام ولى فى ذلك مبادئى ومعتقداتى الا أننى لا أجد فى ذلك ما يبرر حرمانى من السعادة التى ستنجم من اقترانى بك ـ

قالت ـ إذا كنت ترى ذلك وإذا كنت تعتقد أن اقترانى بك مع هذا لن يؤدى إلى ... ـ وسكتت للمرة الثانية دون أن تتم فقلت وأنا أضغط على يدها فى حرارة

ـ أنا واثق من ذلك ياحورية تمام الثقة .. والآن خبرينى، هل توافقين ؟ ـ

فاحمر وجهها وبرقت عيناها سروراً وقالت

ـ اننى اوافق ... اوافق من أعماق قلبى ـ

فقلت فى فرح غامر

ـ إذن أفاتح أمك ـ

فقالت فى جذل

ـ يحسن أولا أن تكتب الى رسمية هانم ـ

ـ حسنا ... سأكتب لها على الفور ـ

ولا أذكر شيئا مما حدث ومما قيل بعد ذلك ولكن الشيء الذى أذكره هو أننى بعد أن ودعتها سرت أترنح فى الظلام بين الحقول وأنا أرهف السمع الى صوت الأمانى وهى تعربد فى صدرى ، وأصغى فى نشوة الى اصداء الكون من حولى وهى تتجاوب فى لحن عذب راقص متصل ، وحين استلقيت على فراشى وبدأت استسلم للنعاس كان آخر شيء وسوس فى ضميرى وهتفت به شفتاى

« اننى أسعد مخلوق فى الحياة »

* * *

وفى صباح اليوم التالى كتبت الى كل من رسميه هانم ويونس بك رسالة رقيقة وفى نهاية الأسبوع جاءتنى رسالتان ، أما الأولى فكانت من رسمية هانم وهذه هى محتوياتها :

عزيزى الأستاذ شوقى

أكتب اليك هذه الكلمات وكلى أمل فى أن تكون وجميع من بالعزبة بصحة وعافية ، أما صحتى فلا بأس بها بفضل عناية الأطباء ورعاية والدتك ، وأما فيما يتعلق بموضوعك فافيدك بأننى أرحب بهذا الزواج وأوافق عليه من صميم فؤادى لما أعرفه عن حورية وعن خصالها وسجاياها ولكنى أخبرك

بينى وبينك أن رغبتك لم تصادف قبولا عند يونس بك ولم أعرف الآن وجهة نظره فى هذا الرفض وما أخفى عليك اننى قد أنكرت ذلك لأننى أدرى الناس بما عليه حورية من عالى الصفات ورفيع الخصال ، على أننى لم استطع أن أبادى والدك برأيى ، وما أرى الا أن تنظر فى هذا الأمر وحدك لأنه يعنيك أكثر مما يعنى غيرك ويمسك أكثر مما يمسهم جميعا .

هذا وقد تمتد اقامتى هنا شهرا آخر تحقيقا لرغبة فاتن ، وتحيتى اليك والى حورية والجميع ؟

رسمية

أما رسالة يونس بك فقد كانت على النحو الآتى :—

ولدى شوقى

لقد دهشت من خطابك لأننى أرى أن مسألة زواجك لاينبغى أن تعد على هذا الأسلوب السريع المرتجل ، ولا أحب أن تفهم أننى أبغى الاستئثار بهذا الأمر دونك . كلا . ولكنى لاأحب لك أن تتورط فى أمر مستقبلك هذا التوريط ، لأن هناك أشياء كثيرة يجب أن تفكر فيها قبل الاقدام على هذا الزواج ، وأول هذه الأشياء أن هذه الفتاة لاتليق بك ولا بأسرتك بأى حال من الأحوال وثانى هذه الأشياء أن فتاة

كهذه لايمكن أن تتيح لشاب مثقف مثلك السعادة التى ينشدها، ولا أكتمك أن هـذه الرغبة قد أفزعتنا لاسيما وقد جاءت فى وقت كنا نفكر فيه تفكيرا جديا فى خطبتك لفتاة أيسر مايقال فيها أنها تنتمى الى أسرة عريقـة ممتازة ، وسأحـدثك بتفاصيل هذه الخطبة عند حضورنا بصحبة رسمية هانم فى منتصف الشهر القادم ، ولك خالص تحياتى وأزكى سلامى ؟

يونس

ووقفت لحظة أقرض على أسنانى فى غضب وحنق ثم أمسكت بالخطاب ومزقتـــه اربا اربا وكان ردى المباشر على محتويات هـذه الرسالة أنى أسرعت الى دار « حورية » وكانت فى ذلك الوقت جالسة مع أمها فى احدى الغرف فشخصت اليها وأعلنتها برغبتى وتصميمى على التعجيل بالزواج .

قالت أمها وهى لاتـكتم فرحها ـ ولـكن ألا تظن أنه يجمل بنا أن ننتظر ريثما تعود رسمية هانم ـ

فقلت ـ لقد أبدت موافقتها وبذلك لم يعـــد هناك مايدعو الى الانتظـــار ـ

فقالت ـ الأمر أمرك يا أستاذ شوقى ـ

فقلت ـ اننى مصمم على أن يتم كل شىء فى نهاية هـذا الأسبوع

فهل توافقان ؟ـ

فتورد وجه حورية وتألق خجلا وفرحا ثم أطرقت ولم تتكلم أما أمها فتطلعت الى وقالت فى حبور ـ اننا رهن مشيئتك ـ

وفى اليوم المحدد أتممنا كل شىء فى حفل هادىء جميل ، وانتقلت حورية عقب ذلك الى دارى ، وكنت قد كتبت الى يونس بك وأمى ورسمية هانم بما استقر عزمى عليه مؤكدا لهم أنه يسرنى أن أراهم فى حفلة الزواج اذا راقهم الحضور ، فأما رسمية هانم فقد أبرقت الى مهنئة ، وأما يونس بك فقد أمسك عن الرد ، وأما أمى فردت ردا مقتضبا لامتنى فيه على تسرعى الممقوت ولكنها مع ذلك تمنت لى السعادة ، ولم أحزن لذلك فقد كان أمره تافها بالقياس الى فرحى بحورية ولذة فوزى بها وحرارة حبى لها ، وسارت الأيام فى طريقها والعلاقة بينى وبين زوجتى تزداد توثقا وحبا وتعلقا وكلفا ، وكان كل يوم يمر يزيدنى شغفا بها وهياما وكانت كل لحظة تنقضى تمدنى من الأحاسيس ما يملأ سنوات من حياة غيرى ولا غرو فقد كانت حورية مثال الزوجة المخلصة المحبة الوفية ، والرفيق الودود الأنيس ، كانت تقرأ رغباتى من عينى وتعرف كل حاجاتى فتوفرها لى دون أن أشعر ، وكانت لاتكتفى فى ادارة البيت بالاشراف

والارشاد ، بل كانت تشرف بنفسها على كل أمـوره صغيرها وكبيرها ، وكانت رغم مشاغلها تجـد وقتا لتشاركنى هـواياتى ومتعاتى الفنية من أدب وقصص ورسم وموسيقى ، ورغم أنها لم تـكن ندا لى فى ثقافتها الا أنها كانت على المام تام بكل ما يتيسر لواحدة من مستواها فى العلوم .

وكانت فى أول الأمر لاتعرف من الغناء سوى محاكاة الآنسة أم كلثوم وغيرها من شهيرات المطربات ولـكنها مالبثت أن نحت فى الغناء نحوا جديدا ، وما لبث صوتها أن أصبح شيئا آخر غير ذلك الصوت الباكى الحزين . وأخـذت بمرور الزمن أتلمس فيها تغيرا ورقيا ولم يـكد يكتمل الشهر حتى كانت قـد بلغت فى ذلك شأوا بعيـدا تحسد عليه وفى منتصف الشهر التالى عادت رسمية هانم وفاتن وحدهما مع شنودة افندى ، وكان لمجيئها رنة فرح وسرور فى نفوسنا ونفوس أهل العزبة جميعا .

وكانت فاتن أشدنا فرحا وطربا وابتهاجا ، فقد كان فرحها بتوفيق وحبها له واعجابها به لا يعرف حدا ، كانت مفتونة به مشغولة دائما بأمره مصروفة فى كل أوقاتها الى صورته ، وكان تغيرها هـذا موضوع الحـديث بينى وبين حورية خلال الأيام التى انقضت بعد وصولها مع أمها .

قلت لحورية يوما ـ يالها من فتاة غريرة .. انها تحلق فى جو ما أبعده عن دنيا الواقع ـ

فقالت ـ حقا ، لقد ملك عليها خطيبها قلبها وعقلها وعواطفها وأنساها كل شىء حتى نفسها ، ولكن خبرنى أليس فى الامكان أن يكون لهذا الحب أثره فى تطهير نفس الأستاذ توفيق من الفساد والاستهتار والمجون ؟ ـ

فقلت ـ أنا معك فى أن الحب خليق أن يزكى القلوب ويطهر النفوس ولكن من قال لك أنه يحبها ويبادلها عواطفها ، لقد عشت معه وأقمنا معا الأيام والليالى فلم أشهد سوى غرائزه البغيضة وطباعه الشاذة واخلاقه الوضيعة الفاسدة ـ

فقالت ـ لشد ما تخدعنا الظواهر ، ان منظره فى صوره التى عرضتها فاتن على لاتنم الا عن براءة وطهر ونقاء ـ

فقلت ـ لست أنكر أنه يتميز بمظهر فاتن يخلب الألباب ولعلك لم تنس أنه أختير يوما ملكا للجمال فى احدى حفلات القاهرة منذ ستة عشر عاما ـ

فتمتمت تقول ـ آه ... اذكر أنك حدثتنى عن ذلك ـ

فسكت لحظة ثم قلت ـ اسمعى ياحورية .. أن ما كنا نخشاه قد وقع وأصبح أمرا لامفر من التسليم به ، وأظن أنه يجدر بنا أن

تكتم هواجسنا عن فاتن لأنها لن تصدق واذا صدقت فقد تؤذيها هذه المصارحة وتهدم آمالها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فانى أرى أن نحتفظ بمظاهر الود بيننا وبينه عند حضوره وأن نحرص على أن يقوم التفاهم بيننا وبينه طول اقامته هنا بعد الزفاف ـ

وعندما عدت الى دارى فى أصيل ذلك اليوم كانت فاتن تجلس مع حورية فى غرفة الاستقبال ، وكانتا فى ذلك الوقت تتداولان صورة توفيق وتتأملانها فى شغف ولهفة واعجاب فلما أحستا بمقدمى نهضتا واقفتين ودنت منى فاتن وناولتنى الصورة قائلة وعيناها تتألقان فرحا وزهوا وسرورا ـ انظر ... لقد وردت الى اليوم فى رسالة .. انها أحدث صورة لتوتو ، ما قولك فيها ؟ ـ

فقلت وأنا أتململ امتعاضا ـ حقا ، أنها صورة رائعة ـ

وكم كانت دهشتى بالغة عندما اختطفت الصورة من يدى لتضع عليها قبلة حارة ثم تدفنها فى صدرها فى وله زائد ووجد شديد ، ورغم ما كان فى ذلك الموقف النابى من موجبات الخجل فانها استأنفت الكلام فى جرأة ممجوجة ـ انه أجمل شاب فى القاهرة ،

ولذلك فليس فى نيتى أن أقدمه لصديقاتى حتى لا أنغص عليهن حياتهن ، ولـكنى سأستثنى حورية من غير شك ـ

قالت ذلك وهى تهتز وتترنح طربا أما أنا فقد خيل الى أن قلبى قد هوى الى قـدمى من فرط الأسى والحزن على هذا التحول الغريب الشاذ الذى طرأ على هذه الفتـاة الساذجة ، ومن ذلك اليوم سقطت فاتن من نظرى وتلاشى تقديرى لها كفتاة محترمة .

وعنـدما همت بالانصراف التفتت الى حورية وقالت ـ اذا حضرت الليلة فسأحـــدثك طويلا عما كنا نفعله فى صالات القاهرة ـ

وعندما غادرتنا قلت لحورية ـ ما أشد ماطرأ عليها من تغير ... لقد جعل منها الشيطان مخلوقا آخر ـ

فقالت ـ حقا ، ان من يراها لا يظنها فاتن القديمة ـ

فقلت ـ أن مثل هـــذا التحول لا يحمل فى طياته سوى الشر والفساد ، ألم تنبئك بميعاد الزفاف ؟ ـ

فأجابتنى ـ لقد قالت لى بأنه سيحضر فى نهاية هـذا الشهر ، وأن النية قد انعقـــدت على اتمـــام الزواج فى منتصف الشهر القـــادم ـ

وفى المساء أوصلت حورية الى دار فاتن بناء على رغبتها ثم عدت وحدى وأنا أتمتم باللعنة على توفيق وعلى المصادفات السيئة التى أوقعت فاتن فى حبائله ودفعت به مرة أخرى فى طريقى.

الفصل التاسع

وحل اليوم الموعود .. يوم وصول توفيق ، وكان ذلك فى يوم جميل من أيام شتاء الصعيد البديع ، وكنت قد قضيت وجه النهار فى الحقول فلما عدت الى دارى عند الأصيل لم أجد حورية وانما وجدت من انبأنى بخبر وصول توفيق الى دار رسمية هانم منذ ساعات وذهاب حورية لتحيته تلبية لدعوة فاتن ، فدخلت دارى واغتسلت وأبدلت ثيابى ثم خرجت ويممت شطر الدار الأخرى ، وعندما وصلت توجهت من فورى الى غرفة الاستقبال وهناك وجدت (توفيق) بوجهه المشرق المتصابى ومظهره الأنيق الذى لم يعتوره تغير ، جالسا يضحك ملء شدقيه بين حورية وفاتن بينما كانت رسمية هانم مضطجعة على أريكة بالقرب منهم ، فلما ظهرت على عتبة الغرفة نهضوا جميعا وأسرع توفيق واحتضننى بين ذراعيه وأخذ يقبلنى ويضمنى الى صدره فى حرارة أذهلتنى ، وعندما أخذنا مجلسنا قال

ـ كيف ألومك على تصرفاتك ياشوقى ، اننى أعجب كيف وجدت القدرة على مقاطعتنا طول هذه المدة ؟ ـ

فقلت وأنا أرقب فى غيظ واشمئزاز وجهه المتألق ذا النضرة المتجددة وأصابعه الرخصة البضة المرصعة بالجواهر ـ ليس الذنب ذنبي وانما ذنب ... ـ

فقاطعنى ضاحكا ـ دعك من حديث الذنوب فانى أعرف القصة من بدايتها الى نهايتها . ولا أكتمك أننى بعد أن رأيت حورية أيقنت بأنك غير ملوم ـ

ورمق حورية بنظرة ملتهبة ثم ضحك وضحك الجميع أما أنا فقد وجمت ولزمت الصمت واستطرد هو يقول ـ الواقع أنه لم يخطر لنا فى مصر على بال أن حورية على هـذه الصورة من الكمال والتهذيب ، ولو قد رآها أحد منا لما حدث ماحدث ـ

فأشرقت ملامح رسمية هانم وقالت ـ أراك قد وثقت أخير بصحة كلامى ـ

فقال ـ حقا ، ولو درى يونس بك بالحقيقة لاغتبط أيما اغتباط ـ

وهنا رأيت الا مناص لى من الكلام كيما أحول مجرى الحديث الى ناحية أخرى فقلت

ـ وكيف حال يونس بك ؟ لقد سمعت أنه أحيل الى المعاش ـ

فقال ـ هذا صحيح ، ولكنه لايريد أن يخلد الى الراحة أبداً

ولذلك فقد سعى حتى التحق باحدى الشركات الكبيرة نظير مكافأة ضخمة ـ

ونهضنا بعد ساعة لتناول طعام العشاء وبعد أن فرغنا منه انتقلنا الى الشرفة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث وبعد وقت طلبت رسمية هانم من حورية أن تغنى لهم احدى أغانيها ، فتمنعت وبدا عليها التردد والخجل وهنا نهض توفيق واقترب منها ثم أمسك بيدها فى غير كلفة وأرغمها على الوقوف بجوار فاتن وطلب منها أن تغنى له أغنية من أغانى أم كلثوم ، فازداد خجلها واشتد ارتباكها وحيرتها وأمام هذا لم أر بدا من حسم الموقف فاقتربت ووقفت بينها وبينه وطلبت منها تحقيق رجائه. وما خيم السكون على المكان حتى انطلق صوت حورية بغناء شجى عذب رقصت على وقعه القلوب وثملت من عذوبته الحواس ، وما كادت تنتهى من غنائها حتى قفز توفيق الى ناحيتها وقال وقد ارتعش صوته وبرقت عيناه ـ مدهش ... رائع ... ما كنت احسب أن صوتك ساحر الى هذا الحد ياحورية ـ

فخفضت بصرها وقالت وهى تأخذ مكانها الى جوارى ـ اذا كان هذا حقا فالفضل راجع الى أستاذى ـ

قالت ذلك وهى تشير الى بابتسامة عذبة فقلت ـ بل الفضل

راجع الى موهبتك واستعدادك ياحورية ـ

فقال توفيق ـ على أى حال يجب أن تعلما أننا لن ننام الليلة حتى تسمعنا حورية أحسن ماعندها من أغانى ـ

وهنا اعتدلت فاتن فى مقعدها وقالت وهى تكتم انفعالا حادا من الغيرة ـ ألم أقل لك أن لها صوتا لا مثيل له ، ولكن لاتنس أن تطالب الأستاذ شوقى باداء نصيبه فى سمر هذه الليلة ، دعه يقص علينا أحدث روائعه القصصية ـ

وحاولت عبثا أن أتخلص من هذا العبء اذ كنت أشعر بضجر لا حد له ولكنى أكرهت آخر الأمر على مالا أحب فأذعنت لالحاحهم وأخذت أحكى لهم قصة لم أفرغ منها الا فى ساعة متأخرة من الليل .

وعندما ودعنا توفيق وفاتن آخر السهرة عند باب الحديقة قال وهو يصافحنا بحرارة

ـ كيف أشكركما ، أن سرورى بوجودكما معنا الليلة لا يعدله سرور ، ولا شك أنه يسر فاتن أن نرد لكما الزيارة فى منزلكما غدا ـ

وكنت اثناء حديثه أرقبه خلسة وهو يرمق وجه زوجتى بنظراته الجشعة الملتهبة وأعانى من جراء ما أرى وأسمع

ثورة تجمجم فى رأسى وتضطرم فى احشائى ، فلما فرغ من عبارته تمالكت نفسى وقلت ـ اننا نرحب بذلك كل ترحيب ـ

فقال ـ اذن نحضر لزيارتكما بعد الظهر ـ

فقلت ـ بكل سرور .. إلى اللقاء ـ

ولم أنم ليلتى فقد كان على أن أفكر فيما ينبغى على عمله لحماية حورية من هذا الشيطان ، وتجنيبها ويلات صداقته الخطرة وسوء عواقبها . وقضيت ليلى ساهـــرا يوسوس الشيطان فى ضميرى وتزلزل الغيرة فى صدرى وبقيت على ذلك ساعات دون أن انتهى إلى رأى أو أبلغ من تفكيرى إلى غاية . وأخذت أفكر فى ذلك طول يومى التالى دون أن أصل إلى نتيجة ، وأقبل توفيق وفاتن قرب الساعة الرابعة وأمضيا معنا وجـــه النهار وشطرا من الليل وعندما ودعناهما عند منتصف الطريق وعدنا إلى دارنا كنت قد أقنعت نفسى بضرورة وضع حد لهذه المناورات التى يعدها توفيق لايقاع حورية فى حبائله بعد أن وقفت من أشاراته وتلميحاته ونظراته فى تلك الليلة على ما يخفى من أمره ، هنالك قررت أن أرحل بها إلى حيث لا ترى هذا العطف الآثم الذى يظهره لها ، وإلى حيث لا تسمع عبارات اطرائه التى ينثرها على مسامعها ، وإلى حيث لا ترى هذه النظرات

الفتاكة التى يحاول أن يصرعها بها ، واستقرت نيتى فى اليوم التالى على السفر إلى بلدة « الخضيرات » حيث يقيم أحد اصدقائى مع زوجته ، فأرسلت اليه كتابا أوعزت اليه فيه أن يرسل فى طلبي لمساعدته فى انجاز بعض أعماله ، ولما جاءنى خطابه فى الصباح توجهت من فورى إلى دار رسمية هانم واطلعتها عليه وطلبت منها السماح لى باجازة أقضيها مع صديقى على أن أعود قبيل حفلة الزفاف ، فترددت فى اجابة طلبي لاعتقادها أننى ما أقدمت على هذا الطلب إلا للتهرب من استقبال يونس بك وأمى عند حضورهما ولكنى ما زلت بها حتى اقتنعت وحققت رغبتى ، أما توفيق فقد أنكر هذا السفر وضاق به وألح فى تأجيله ولكنه لم يلبث أمام اصرارى أن اذعن لارادتى وودعنا كارها .

وكان صديقى يدعى « صادق » وكان يقيم مع زوجته فى دار شيدتها له الحكومة فى منطقة خلوية ممتعة للاشراف على الرى فى تلك الناحية ، وكانت حياتها سعيدة مرحة هانئة فطابت لنا الأقامة معها وسعدت نفوسنا بما أضفياه علينا من حفاوة وما احاطانا به من كرم ضيافة ، بيد اننى وقد بدأت أبرأ من هواجسى وظنونى فى تلك البقعة الجميلة لم ألبث أن ابتليت بهواجس وخواطر أخرى جديدة منشؤها فى هذه المرة أحلام مزعجة

استبدت برأسى وطاردت منامى ، وكان أبى هو مصدر هذه الخواطر المزعجة التى روعت قلبى وطغت على مشاعرى وغمرتنى بموج ثقيل بغيض لم استطع أن أمضى فى احتماله والصبر على وطأته ، كانت قوة خفية تدفعنى الى التفكير فى أبى وكنت لا أغمض عينى حتى تقفز صورته الى مخيلتى وهى تتطلع الى صارخة متوسلة ، وكانت لا تمر ليلة واحدة دون أن أحلم به ، وكانت كل أحلامى صورة متكررة للرؤيا التى شهدتها فى القطار عند قدومى الى العزبة فى العام الماضى .

وذات ليلة استيقظت فجأة من نومى مذعورا على أثر رؤيا هاجت منها أعصابى وتبلبلت لها خواطرى ، فقد رأيت أبى يهبط السلم الخشبى الى النهر وهو يزفر ويلهث كما رأيته عشرات المرات من قبل ، ولكنه كان فى هذه المرة يعدو بكل ما فيه من قوة وهو يتطلع الى انسان وحشى المعالم كان يجد فى أثره ويسرف فى تتبعه . وكانت حورية أثناء ذلك راقدة الى جوارى فلما أحست بحركتى وصيحتى نهضت مذعورة وما رأت وجهى حتى اتسعت حدقتاها من فرط الخوف ثم أسرعت وارتمت على صدرى وهى تقول بصوت راعش مضطرب

ـ شوقى !! ماذا حدث ؟ ما بالك تنظر هكذا ؟ ـ

فبذلت مجهودا جبارا لاستعادة سكينتى ثم قلت ـ حورية ... أعتقد أنه يحسن أن أصارحك ببعض الأمور الآن ـ

فقالت وهى تتشبث بكتفى ـ حسنا ياحبيبى ، ولكن قل لى قبل أن تفعل انك بخير ـ

فقلت وأنا أربت كتفها ـ اننى بخير ياحورية ، ولكن هناك ماأحب أن أقصه عليك لتمدينى فيه برأيك ومعونتك ـ

فقالت وهى تضغط بحرارة واخلاص على صدرى ـ أخبرنى بكل شىء وأقسم لك اننى لن اتوانى فى مساعدتك ولو اقتضى الأمر التضحية بحياتى ـ

ـ ليس هذا الأمر مما يحتاج الى تضحية ، وكل ما فيه أننى فريسة أحلام مزعجة تطاردنى وتمعن فى تعذيبى ـ

فسألتنى ـ وما موضوع هذه الأحلام ؟ ـ

فقلت ـ أبى ـ

وأخذت أقص عليها كل ما رأيته من بدء رؤيا القطار الى نهاية هذا الحلم الغريب الذى أفزعنى ، وما أن فرغت من ذلك حتى تطلعت الى وقالت فى عطف وتأثر وحنان ـ هذا أمر شقيت أنا الأخرى به عقب سجن أبى ، وأعتقد أن السبب فيما تعانيه راجع الى العاطفة القوية العميقة التى تكنها لأبيك ـ

فقلت ـ هذا صحيح ، فقد كنت أحب أبى حبا لا حد له ـ

فقالت ـ انى أجدر الناس بمعرفة هذا الحب فقد كنت متعلقة بأبى الى درجة الهوس لفرط حبه لى وحنانه البالغ على ـ

فقلت ـ وما رأيك فى تطابق مشاهد رؤيا القطار على معالم البلدة التى غرق بجوارها ؟ ـ

فقالت ـ يخيل إلى أن للوهم دخلا فى الموضوع ـ

فقلت ـ هذا محال ، لقد كنت فى تمام وعيي وقتذاك ورأيت البلدة بعينى رأسى ومن غريب الأمر أن هذه أول مرة أزور فيها الوجه القبلى ـ

فقالت ـ ربما كان الأمر محض مصادفة وإلا فماذا تظن ؟

ـ هذا ما يسبب حيرتى ويبلبل أفكارى ـ

ـ إذا كان الأمر كذلك فأنى أرى أن نقوم بزيارة سمالوط فربما نجد هناك ما يهدىء من روعك ويسكن من خواطرك ـ

فقلت وأنا أحس موجة من الراحة تغمر نفسى ـ حسنا ياحورية ، إذا كان الغد فسنرتحل اليها سويا ـ

* * *

ولن أنس تلك الساعة التى قادتنا فيها أقدامنا إلى أحد

أزقة سمالوط ، كان نفس الزقاق الذى طالما شهدت والدى يعدو متعثرا فيه فى منامى ، وكانت الساعة وقتذاك قد بلغت الثالثة بعد الظهر وكانت حورية تسير بجوارى وهى ترقب فى ذهول ما عرانى من فزع ودهشة واضطراب وحينما بلغنا نهاية الزقاق وانعطفنا إلى اليمين لاح لنا فضاء شاسع وبدا النيل عن كثب وهو يتوهج تحت أشعة الشمس ، وهنا ندت عنى صرخة ثم أمسكت بذراع حورية وجذبتها إلى وأنا أقول فى فزع — أنظرى . .. السلم الخشبى —

فنظرت إلى مشدوهة وقالت وهى تلتصق بى — كفى هذا ياشوقى، اننى خائفة —

فقلت وأنا أعانى دوارا شديدا كاد يصرعنى — أريد أن أعرف ، يجب أن نتبين جلية الأمر —

وأمسكت بيدها أعينها على السير حتى اقتربنا من السلم وما كدت ألقى عليه نظرة حتى تراجعت إلى الخلف وأنا انتفض لغرابة ما رأيت ، ذلك أن السلم كان يشبه إلى حد ما ذلك الذى رأيته فى منامى ولكنه كان أصغر وأقصر ، ولم يكن هناك انسان غيرنا فدرت بنظرى أفحص المكان وقد احتوانى دوار شديد كاد يحجب الضوء عن عينى ، ولما اشتدت بى الأزمة أمسكت بيد حورية فى

شده كالغريق الذى يتشبث بحبل النجاة وقلت فى عبارة يغشاها الاضطراب

ـ اننى أعانى أزمة لا تحتمل فهلم بنا الى المحطة ـ

وعندما أخذت مكانى فى القطار قلت لها

ـ اننى لست ممن يؤمنون بالخرافات ولكنى أوقن يقينا لا يخالطه شك أن هناك علاقة خفية بين أحلامى وبين مصرع أبى ـ

فسألتنى ـ وبم تفسر ذلك ؟ ـ

فقلت وأنا مستسلم لهاتف غامض ـ ليس لذلك من تفسير سوى أن والدى قد مات منتحرا ـ

فقالت فى دهشة ـ منتحرا ؟ أتظن ذلك ؟ ـ

فقلت وأنا غارق فى أفكارى ـ هذا ما اعتقده وليس لدى الآن فكرة واضحة عن سبب انتحاره ولكن الشىء الذى أذكره أنه حينما ودعنا وارتحل منذ ستة عشر عاما كان فى حالة شديدة من القلق والانقباض والكآبة ـ

فسألتنى ـ وهل كان لذلك من سبب ؟ ـ

فأجبتها ـ لاأدرى تماما ولكنى أذكر أنه كان ينسب متاعبه الى آثار نجمت عن المرض ـ

فسألتنى ـ اذن فأنت تعتقد بأنه أقدم على الانتحار تخلصا من آثار المرض ؟ ـ

فقلت ـ انى أرتاب فى ذلك لانه برغم ادعائه كان بعد ابلاله فى صحة جيدة ، وفى رأيي أنه كان يعانى أزمة نفسية لا تمت لآثار المرض بصلة ـ

وقضينا فى ضيافة صديقى « صادق » بضعة أيام أخرى وجدنا فيها من أسباب الراحة والمتعة والصفاء ما أنسانى خلل أعصابى وسلانى عن أفكارى وخواطرى وبعد أسبوع جاءتنى رسالة من رسمية هانم أنبأتنى فيها بوصول يونس بك مع أمى الى العزبة وطلبت منا فيها ضرورة التعجيل بالحضور للاشتراك فى حفلة زفاف فاتن ، فاذعنا لمشيئتها وقررنا السفر فى اليوم التالى .

* * *

الفصل العاشر

وفى الصباح ودعنا صديق صادق وزوجته ثم ركبنا سيارة انطلقت بنا صوب العزبة ، وعندما بلغنا باب حديقة دار رسمية هانم كان فى انتظارنا هناك توفيق وفاتن ، وكانا على مايظهر قد رأيا السيارة وهى تصعد الطريق عن بعد فما أن هبطنا حتى أسرعا الينا وصافحانا فى شوق وحرارة ، وانتحى توفيق بى ناحية وقال وهو يربت كتفى فى مودة ظاهرة ـ ستعرف الآن أى خدمة جليلة قدمتها لك ـ

فنظرت اليه وقلت متسائلا ـ خيرا ... ماذا هنالك ؟ ـ

فقال وهو يبتسم ـ لقد مهدت كل شىء ، وسترى الآن بأى حفاوة ستقابل حورية من يونس بك وثريا هانم ـ

فقلت ـ هذه أنباء سارة ولا شك ـ

فجذبنى من ذراعى واقترب من حورية وفاتن ثم قال موجها الحديث الى حورية ـ هيه ، كيف أمضيت أيامك هناك ؟ ـ

فقالت وهى تتحاشى النظر الى عينيه الفاحصتين ـ كأحسن

ما يكون ـ

فابتسمت فاتن وقالت ـ أن حورية لايطيب لها العيش الا فى الخلاء ولذلك فلا بد وأن تكون قد قضت وقتا سعيدا للغاية ـ

فقال توفيق لفاتن ـ معنى ذلك أنه سيكون عليك أن تفكرى كثيرا فى الملاهى التى ستسليها بها عند سفرها معك بعد الزفاف ـ

فسرت فى جسدى رعدة وكنت على وشك أن أفتح فمى للكلام حين استطرد يقول لى ـ لقد تحدثنا مع يونس بك أمس فى هذا الشأن فاستقر الرأى على أن تصحبانا لقضاء وقت معنا بالقاهرة وقد فعلنا ذلك لعلمنا بأنك لا تمانع فى ذلك ، فما رأيك ؟ ـ

فقلت وأنا أتكلف البشاشة ـ لا أدرى اذا كانت الأعمال هنا تسمح بذلك أم لا ـ

فقال ـ لاشك أنها تسمح لاسيما وأننا لن نرحل قبل شهر أو أكثر ـ

فقلت ـ آه ، هذا شىء آخر ، وما دام هناك متسع من الوقت فسيكون أمامنا فرصة للتفكير ـ

وكنا فى ذلك الوقت قد بلغنا الباب الداخلى ولم نكد نضع أقدامنا على الدرج حتى ظهر يونس بك وأمى ورسمية هانم على العتبة وكان يونس بك مرتديا ثوبا واسعا متناهيا فى البساطة

ولـكنه على جانب كبير من النظافـة والأناقة فلما وقع بصره علينا هبط بضع درجات وهـو يبتسم واقترب منى وصافحنى فى حرارة ثم تحول ناحية حورية وعيناه تطفران سرورا واعجابا ثم حياها وصافحها وطبع على جبينها قبلة أبوية حارة وهو يقول — مرحبا بك يابنيتى ... اننى لم أكن أدرى أنك فتـاة ممتازة الى هـذا الحـد —

وكانت أمى أثناء ذلك قد تقدمت منى وعانقتنى عناقا حارا ولما جاء دور حـورية أخـذتها بين ذراعيها وأخذت تقبلها وتضمها الى صدرها مرارا .

ولما أخذنا أماكننا فى غرفة الاستقبال قال يونس بك — والآن أخبرنى ياشوقى، كيف ترى العمل فى الريف ؟ —

فقلت — انه يلائمنى تمام الملاءمة —

فقال — هـذا ما حدثتنى عنه رسمية هانم ، كما حدثتنى عن التحسن الذى طرأ على مزارعها بفضل جدك ونشاطك واخلاصك —

فقلت — اذا كان هناك من تحسن فالفضل فيه راجع الى ما لقيته من رسمية هانم من عون وتشجيع وتعضيد —

فقال — هـذا شىء اغتبط له ، وما دمت ترى لذة فى القيام بمثل هذا الاشراف ، فأنه لاشك يسرك أن تسدى الى خدمة شخصية —

فقلت ـ انى رهن اشارتك ـ

فقال ـ أظنك تعلم انى كنت أملك بضعة أفدنة فى مديرية المنيا ـ

فقلت ـ نعم ...انى أعلم ذلك وأظنها تزيد قليلاعن ثلاثين فدانا ـ

فقال ـ تماما ، ولكنها الآن تقرب من المائتين بفضل استبدال جزء من معاشى واستحقاق ثلاث (بوالص) للتأمين على الحياة ـ

فقلت ـ نعم مافعلت ، ان امتلاك الأراضى من المشروعات المربحة الناجحة ـ

فقال ـ حقا ، ولكنها لاتكون كذلك اذا أعوزتها اليد الحازمة والخبرة العلمية ، ولقد تحدثت مع رسميه هانم فى ذلك الليلة الماضيه فقبلت عن طيب خاطر أن نتقاسم معونتك بصورة لا تثقل عليك ـ

فقلت ـ انى لا أعترض على رغبة لك ـ

فقال ـ شكرا لك ، وأما من ناحية تقسيم وقتك فسنترك لك الحرية فى العمل هنا وهناك ، على أننى أظن أنه يكفينى جدا أن تزور مزرعتى مرة أو اثنتين فى الأسبوع ـ

فقلت ـ بكل سرور.. وسأبدأ ذلك ابتداء من الأسبوع القادم ـ

فقال ـ لا .. لاداعى للتعجيل ، بوسعك أن تشرع فى ذلك فى أول الشهر القادم أما الآن فلا ينبغى أن نفكر فى شىء غير

زعاف فاتن .

وفى مساء اليوم التالى أقمت وليمة عشاء فى دارى تكريما ليونس بك وأمى حضرتها رسمية هانم وتوفيق وفاتن وشنودة افندى ، وعندما فرغ الجميع من تناول العشاء وانصرفوا إلى السمر فى غرفة الاستقبال انتهزت فرصة انشغالهم بالحديث وانفردت بأمى فى غرفتى الخاصة وكاشفتها بمسألة أحلامى الغريبة والشكوك التى تساورنى بشأن أبى ، فلما فرغت من قصتى رأيتها ترفع عينيها إلى السماء فى ضراعة وتأثر وخيل إلى أننى أرى الدموع فى مآقيها وبعد لحظة تحولت إلى وقالت بصوت واهن — لست أدرى بم اعلل ذلك ياشوقى ، ولكن أغلب الظن أن لتعلقك الشديد بالمرحوم دخل فى الموضوع .

فقلت — ربما كان الأمر كذلك ، ولكن هل لى أن أسألك سؤالا ؟ .

— سل ما تريد يابنى .

— هل لك أن تخبرينى عن سبب الكآبة التى كانت تلوح على أبى قبل سفره تلك السفرة الغامضة إلى الصعيد ؟ .

شحب وجهها قليلا وقالت — لم يكن السبب هو أثار المرض كما كان يدعى وانما كان سببه شكوكا وأوهاما منشؤها الغيرة .

فقلت وأنا ارتجف ـ معذرة يا أماه .. ولكن لماذا حدث ذلك فقط فى أخريات أيامه ؟

فتأملتنى لحظة ثم قالت ـ يخيل إلى ياشوقى من اسئلتك أن لك رأيا خاصا بمصرعه ـ

فقلت ـ هذه هى الحقيقة ، اننى اعتقد اعتقادا جازما أنه لم يمت ميتة طبيعية وإنما مات منتحرا ـ

فأفلتت من بين شفتيها أنة مكبوتة وقالت ـ انتحر !! كلا .. كلا ما أظنه أقدم على قتل نفسه بحال من الأحوال ـ

قلت ـ هذا هـــو اعتقادى والآن هل لك أن تفسرى لى علة تطور غيرته فى أيامه الأخيرة ؟ ـ

قالت ـ ان غيرته لم تتطور ولكنها كانت كامنة فى نفسه منذ اليوم الذى انتخبت فيه ملكة للجمال ـ

فقلت وأنا أجاهد قلقا حبيسا بين جنبي ـ آه ، لا شك أن لهذا صلة بالتغير الذى طرأ عليه ولكن دعينى أسائلك يا أماه هل ...

ولم استطع اتمام كلامى فقد انقبضت عضلات حلقى كأنما أصيبت بالشلل وبقيت لحظة لا أنطق بكلمة فقالت وهى تتأملنى مليا ـ أننى أعرف تماما مايجول بخاطرك ياشوقى ، وليس لى ماأقوله فى صدد ما يساورك من شكوك سوى أن أقسم لك بأننى لم

أرتكب فى حياتى أمرا مشينا ـ

فقلت وقد عاودتنى سكينة نفسى ـ عفوا يا أمى أننى ... ـ

فقاطعتنى مستطردة ـ هذه هى الحقيقة ، ولقد احتملت غيرة أبيك وصبرت على ظنونه وهواجسه إلى أقصى ما تستطيع الزوجة المخلصة أن تصبر عليه ولكنه أسرف فى الغيرة اسرافا اختلت معه اعصابه وفسدت حياته ونغص حياتنا تنغيصا ، ولكن لاشك أننا نتجنى عليه كثيرا اذا حملناه تبعة ماحدث فان سلطان الغيرة لا يمكن أن يخضع للارادة ولا يستطيع زوج مهما كان حظه من القوة أن يمتنع عليه إذا طرأ عليه وخاصة اذا كان بين يديه زوجة يشتهيها غيره من الرجال ـ

وكان لهذه الملاحظة صداها العميق فى نفسى فاعترتنى هزة عنيفة اضطرب لها قلبى اضطرابا شديدا ذلك أننى أحسست كأننى المقصود بصوت هذا النذير الذى جاء عفوا على لسان أمى ، ورحت للحال أفكر فى موقفى من حورية وموقف توفيق وغيره منها ، وأخذت استعرض بعين الخيال صورا لحياتى المستقبلة معها ، منها المخيف المنذر ، ومنها البسام المشرق ، ومنها الغامض المضطرب ، ولم أفق من تأملاتى الا حين دنت أمى منى وجذبتنى من ذراعى فى حنان وهى تقول:

ـ انني أعرف جيدا فيم تفكر ، انك تفكر فى حورية أليس كذلك ؟ ـ

فقلت فى دهشة ـ عجبا ، كيف أمكنك قراءة أفكارى بهذه السهولة ؟ ـ

فقالت ـ انني قرأت ذلك من عينيك ، والآن اذا كان لى ما أقوله لك فهو النصيحة بالا تدع للشك والغيرة سبيلا الى قلبك ، والا أفسدت حياتك بيدك وخسرت زوجتك النادرة ـ

فالتفت اليها وحاولت الكلام ولكنها أسكتتنى بأشارة وقالت ـ هلم بنا فقد أبطأنا عليهم ـ

وكانت الأيام التى تلت هذه المقابلة مليئة بدواعى قلق واضطرابى فقد كان على أن أقاوم شعور الغيرة الذى يتلظى فى صدرى وينهش أعصابى ، وكان على فى الوقت نفسه أن أغمض عينى عن تصرفات توفيق وحركاته ونظراته وأفعاله ، وكان هذا كله بدافع الحرص على الاستجابة لنصيحة أمى من جهة وفى سبيل حبى الشديد لحورية من جهة أخرى ، وشهد الله كم لقيت من هذا الكبت وهذا الصراع من ألم وعذاب ولو أنى فى ذلك الوقت أطلقت لغرائزى العنان وأطعت الدوافع الثائرة التى كانت تتلظى فى صدرى لفتكت بتوفيق وحطمت حياته تحطيما ،

ولكنى كنت أخشى ان فعلت ذلك أن يكون الفساد الذى لوحت لى به أمى والمصير الأسود الذى اختتمت به حياة أبى ، بيد أن هذه المقاومة ما كان ليكتب لها النجاح لولا ثقتى التى لا حد لها بحورية واطمئنانى التام الى شرف نفسها ، وايمانى العميق بنقاء ضميرها ، والواقع أن هذه الثقة لم تكن ثقة مبنية على محض الشعور بطهارة نفسها ولكنها كانت وليدة دراسة فاحصة مدققة مختلسة اقتنعت معها بأن زوجتى أقوى من أن تعنو لسلطان جاذبيته وأعف من أن تستجيب لقوة اغرائه ، وكانت دراستى لها وله قائمة على مراقبتها مراقبة دقيقة خفية دون أن أثير شبهتها أو أحرك ظنونها ، فكنت ألاحظ كل ما يصدر من توفيق من ألفاظ وحركات ونظرات ثم أرقب فى صمت صدى ذلك كله فيما يضطرب على وجهها من مظاهر ، وما يعتمل فى نفسها من عواطف ونزعات ، وقضيت فى ذلك أياما لم أزدد فيها الا ايمانا فوق ايمان واطمئنانا لاتشوبه شائبة .

وكان الأمل الذى يراودنى فى قرب نهاية هذا الصراع وزوال هذه المحنة معقودا بحلول يوم الزفاف ورحيل توفيق مع عروسه الى القاهرة ، فأخذت أحصى الأيام وأعدها عدا ، ولكن شاء القدر الا يعجل لنا بالرضا ويسرع بنا الى السعادة فقد توفيت

أم حورية قبل الزفاف بأيام قـــلائل وترتب على ذلك تأجيل حفلة الزفاف أربعة أسابيع حدادا عليها ، وبذلك كتب على أن أعود الى ممارسة هـذا الصراع العنيف الذى لا يوصف وهـذه الحياة البغيضة التى لاتطاق .

الفصل الحادى عشر

ومضت أمورنا بعد هـــذه الوفاة على ما تعودت أن تمضى عليه بين ترقب وتيقظ وسهر من جانبي ، ومحاورة وتحايل ومراوغة من جانب توفيق وظلت الحـــال على ذلك دون أن ينتهى صراعنا الخفى الى غاية تسر أحـــدنا أو تسوء الآخر ، واستمر الحال على هـذا المنوال عشرة أيام رحل بعدها توفيق بصحبة يونس بك الى القاهرة لمـد أجل أجازته ولانجاز بعض الأعمال المصلحية وظلا هناك أياما ثم عادا معا قبل حفلة الزفاف.

وأخيرا حل اليوم الموعود..يوم الزفاف، فبدت العزبة فى أبهى حلة، وكانت الليلة الساهرة التى اقيمت بهذه المناسبة بالغة الروعة بفضل البرنامج الفخم الذى أعدته رسمية هانم لها وبما قدمتـه لضيوفها الذين تقاطروا من كل فج من ألوان الكرم وأسباب المتعـة والتسلية ، ومرت هـذه الليلة بسلام وأوشك اليوم التالى أن ينقضى بسلام أيضا لولا ماحدث من يونس بك وتوفيق بسبب نبأ حمل اليهما سرا ففزعا له واضطربا منـه أشد اضطراب ، وكان ذلك حوالى الساعة الثانية من بعـد ظهر اليوم

التالى وكنت فى ذلك الوقت عائدا من عملى فرأيتها يستقلان عربة فى عجلة واضطراب وقلق وينطلقان بها الى جهة مجهولة ، ولم تستطع حورية ولا أمى ولا رسمية هانم ولا أحد من أهل العزبة أن يفسر علة ما حدث وكل ما ذكروه أن رسالة وردت اليها وانها ما كادا يتلوان محتوياتها حتى اضطربا وبادرا بالرحيل ، وكانت دهشتى بازاء ذلك الموقف عظيمة لغرابته وشذوذه ، وقضينا وجه النهار وساعات طويلة من الليل نخمن ونحدس الى أن قطع علينا حبل الحديث صوت قرقعة عربتها وهى تقترب من البوابة الخارجية ، فأسرعنا جميعا لاستطلاع الخبر وحينما وقع بصرهما علينا هبط يونس بك ثم تقدم ناحيتنا وقال وهو يخفى اضطرابه ـ لاتنزعجوا ، لاشىء هناك مطلقا ،كل مافى الأمر اننا سمعنا نبأ خطيرا عن مركز الشركة المالى ولكن أتضح أنها ليست الا شائعة كاذبة .

وقضى يونس بك طيلة اليوم التالى معتكفا بالمنزل أما توفيق فقد استقل مركبة قصد بها الى نجع حمادى حيث قضى بها عدة ساعات ثم عاد ولازم يونس بك الى ساعة متأخرة من الليل وفى اليوم التالى أمر يونس بك باعداد امتعته وحقائبه ثم بارح العزبة الى القاهرة مع أمى .

وانقضى هـذا اليوم واليـوم التـالى كما انقضت الأيام السابقة دون أن يحاول أحد منا أن يتحرى سر هـــذا القلق الطاغى الذى كان ينشر يونس بك ويطويه قبيل سفره وبعد ثلاثة أيام سافر توفيق مع عروسه لقضاء شهر العسل فى الأقصر وبذلك خـيم على العزبة الهـدوء والسكون والدعـة ، وإذ كان يونس بك قبل سفره قد نبه بضرورة سفرى إلى عزبته لتفقد شئونها فى أقرب فرصة فقد انتهزت فرصة رحيل توفيق وسافرت إلى المنيا تاركا حورية وحدها وأنا قرير العين مطمئن البال .

وحينما وصلت عـزبة يونس بك راعنى ما كانت عليه من اهمال وفوضى وفساد ، الأمر الذى دعانى إلى مد أجل أقامتى أسبوعا وفى خلال تلك المدة تمكنت من النهوض بها بعض الشىء فقمت باصلاح ما يمكن اصلاحه وبذلت جهودا كبيرة فى تقويم المعـوج من شئون المشرفين عليها وارشادهم وبعـد أن أتممت مهمتى ودعت من فيها وعـدت أدراجى إلى عزبة رسمـية هانم . وعندما وصلت أطـراف العزبة أمرت سائق العربة أن يدور حـول الحديقة كى ألقى نظرة على أعمال بعض البستانيين فـلوى عنان الجـواد وانطلق يدور بالعربة حـول السور الـكبير وما كدت أمد رأسى من النافذة وأدور بنظرى فى أرجاء المكان حتى

استقر على ما أرسل الرعب والفزع فى قلبى ، ذلك أننى بدلا من أن أرى البستانى وغلمانه رأيت (توفيق) واقفا يدخن غليونه على حافة قناة صغيرة وهو يصيد سمكا بشصه ، أجـــل ، كان توفيق بعينه ، وما أن استقـر الشعـور بوجـوده فى نفسى حتى صحبته رعدة قوية سرت فى كيانى ، وخوف مفاجىء مشى له قلبى ، وعندما وقفت العربة لم أقـو عـلى الحركة ولبثت أتطلع اليه فى ذهـول وقلق إلى أن تقـدم ناحيتى ومد يده مصافحا وهو يقول وعلى فمه ابتسامة غامضة .

ــ اه ، شوقى ، ها أنت ذا عدت أخيرا ، كيف وجدت الحال هناك ؟ ـ

فهبطت من العربة وسرت معه ثم قلت وأنا أجاهد للسيطرة على أعصابى ـ لا بأس بها ... وكيف حال الأقصر ؟ ـ

فقال فى تأفف ـ سحقا لها ، لقد كنا على وشك الاختناق فيها ، يا لها من بلد لعين ـ

فقلت وقلبى يخفق خفقـا شديداً ـ عجبـا ، هذا كلام أسمعه عن الأقصر لأول مرة ـ

فأجابنى ـ هذه هى الحقيقة ، والواقع أن هذه الزيارة خيبت ظنى ـ فقلت ـ ومن أجل ذلك اختصرت مدة أقامتك هناك ـ

فقال وهو يمسك ذراعى بيمناه فى مودة متكلفة ـ طبعا ، وماذا كنت أستطيع أن أفعل ، إن جو هذه البلدة لا يوافقنى على الاطلاق ـ

فسألته وأنا اتفحص وجهه خلسة ـ ومتى عدتما ؟ ـ

فأجابنى ـ منذ أربعة أيام .

وما كاد يتفوه بعبارته حتى قفز قلبى من مكانه وشعرت بالعرق البارد يغمر وجهى ، وحاولت أن أتكلم ولكنى ما كدت أهم بذلك حتى ابتدرنى قائلا ـ الا تريد أن أحدثك عن زيارتنا الاقصر ؟ ـ

فقلت ـ أظن أنه يجدر بى أولا أن أذهب إلى دارى لأننى متعب للغاية ـ

وعندما تركته مشيت استحث الخطى نحو دارى والهواجس تنتهبنى وتضطرب فى رأسى ، وأوغلت فى الحديقة ثم اجتزت الفضاء الذى يفصل بين دار رسمية هانم ودارى وما كدت أقطع نصف المسافة حتى الفيت نفسى مضطرا الى النظر ورائى حين شعرت بوقع خطوات تدب هناك عن بعد فوق الحصى وعندما تحولت ببصرى رأيت (توفيق) واقفا عند بوابة حديقة رسمية هانم وهو يرمقنى بنظرات غريبة وعلى فمه

ظل ابتسامة انقبضت لها نفسى .

ووقفت لحظة أمام الباب كى استعيد سكينة نفسى وأجفف العرق المتصبب على جبينى وبعد برهة طرقت الباب ففتحته الخادمة ولأول مرة لم أر حورية تسرع الى لقائى كالعادة وانما لحظتها تقف عند قمة الدرج وقد شحب وجهها واضطربت حركاتها وظهرت على وجهها امارات قلق غامض ، ومن العبث أن أصور مدى ما انتابنى من جزع فى تلك اللحظة ولكنى مع ذلك استطعت أن أخفى شعورى وارتقيت درجات السلم فى هدوء وما أن اقتربت منها حتى أسرعت لملاقاتى فعانقتها وعانقتنى ووقفت لحظة اتطلع الى وجهها الشاحب وعينيها التائهتين ثم سألتها ـ ماذا بك ياحورية ؟ أأنت مريضة ؟ ـ

فأحنت رأسها ثم رفعتها وهى تبذل جهدا لتكلف الهدوء ـ ما بى من شىء ، كل مافى الأمر اننى أرقت كثيرا فى الليلة الماضية ـ

فقلت وأنا أتأملها ـ ولكنك لاتبدين فى حالتك العادية ، انك مضطربة للغاية ـ

فقالت والكلمات تتعثر فى حلقها ـ لست مضطربة ولكن السبب الحقيقى غريب ، فقد حلمت الليلة السابقة كأنى أجول معك تلك الجولة المخيفة فى سمالوط ـ

فقلت وقد هدأت وساوسى ـ اذن فهذا هو السبب ... انه لاشك سبب كاف لاثارة القلق ، ولكن لاينبغى أن تفكرى فى هذا الأمر بتاتا ياعزيزتى ـ

ولم أحاول بعد ذلك أن الح عليها بالسؤال فقد خشيت إن فعلت أن أظهرها على شكوكى وكنت أكره ما أكون لاظهارها على مثل هذا الشعور ، وما لبثت أن أخذت يدها بين يدى وأنا أقول فى بشاشة ـ تعالى وخبرينى كيف أنفقت هذه الأيام التى قضيتها بعيدا عنك ـ

وعندما دخلنا غرفتنا وأخذت تعيننى على خلع ملابسى قالت ـ حقا ياشوقى ، لاينبغى بعد اليوم أن تتركنى وحدى ، انك لاتدرى كم يزعجنى ابتعادك عنى ـ

فقلت ـ لاتقلقى ياحورية فلن أفعل ذلك بعد اليوم واذا حدث وسافرت فسأصحبك معى ـ

فقالت وهى تنظر الى فى حنان ـ هذا أدعى لغبطتى وسرورى فلست أحب الا أن أكون دائما بجوارك ـ

فقلت ـ انك تعلمين ياحورية أن هذا هو شعورى أيضا ، والواقع اننى ماتركتك هذه المرة الا لوثوقى بأنك ستجدين فى رفقة رسمية هانم ما يؤنس وحشتك ـ

قالت ـ حقا، لقد كانت الأوقات التى قضيتها معها مسلية ولـكنها لم تـكن مبهجة للغاية ـ

فسألتها ـ ولماذا ؟ أمريضة هى ؟ ـ

قالت ـ أجل ، انها تعانى ألما شديدا من نوبات المغص ـ

فقلت ـ اذن لابد وأن يـكون ذلك هـــو السبب الذى حمل توفيق وفاتن على التعجيل بالعودة ـ

فاصفر وجهها قليلا وان لم تبـد اضطرابا على أنها حالمـا رأت نظرتى المصوبة اليها تمالـكت نفسها واستردت هدوءها وقالت

ـــ لست أدرى .. ولـكنى أظن أنها عجلا بالعودة لأن الأقامة هنـاك لم ترقهما ـ

فقلت ـ ياللعجب ، يخيل الى أن توفيق هـذا لايروقـه شىء فى الوجود ، متى عاد ياترى ؟ ـ

فأجابتنى ـ منذ أربعة أيام ـ

وترددت لحظة قبل أن ألقى بسؤالى التالى حتى تهدأ الزوبعة التى كانت تعصف برأسى ، ولكى أخفى شعورى حولت وجهى نحو النافذة وقلت ـ لعلها لم يبخلا بتسليتك أثناء غيابى ؟ ـ

فقالت وهى تتشاغل بترتيب ثيابى ـ هذا مافعلته فاتن فقد كانت تزورنى يوميا ، أما توفيق فانى لم أرد الا مرة واحدة ـ

وكأنما أرادت أن تؤكد ماتقوله فاستطردت ـ وفى هذه المرة أمضينا السهرة بجوار فراش رسمية هانم ـ

وكان هذا الكلام خليقا أن يبعث فى نفسى الهدوء ، ويرد عن عقلى خواطرى المقلقة المظلمة ، ولكن الصيغة التى ألقى بها وحالة الاضطراب التى كانت بادية على حركاتها جعلتنى فى ريب من أمرها واختلاط ، وأخذت طول يومى أسائل نفسى عن علة هذا القلق الحبيس الذى تجاهد فى كتمانه فلا أجد من نفسى الا جوابا واحدا وهو أنها تخفى فى نفسها شيئا خطيرا وأمرا ذا بال .

وقبيل المساء خرجت لزيارة رسمية هانم وهناك وجدتها وحدها تقاسى ألما فى أحشائها أما توفيق وفاتن فلم يكونا هناك ، وعندما سألتها عنهما أخبرتنى بأنهما خرجا للتريض فى المزارع ، فخرجت بدورى بعد أن قضيت معها وقتا وانطلقت صوب شاطىء النيل لأتريض قليلا ، وخلال هذه الرياضة أخذت أقنع نفسى من جديد بأن ماساورنى من هواجس ليس من الحقيقة فى شىء . ورحت ألوم نفسى وأعنفها على سوء ظنها وأزعم أن حبى لحورية قد أخرجنى عن طورى وأن الغيرة الطائشة هى التى وسوست لى بالشر والشك معا ، ويظهر أننى أفرطت فى محاسبة نفسى على سوء ظنها بحورية لأننى ما كدت ألقى زوجتى عند عودتى إلى

دارى حتى زايلنى قلق وأمضيت معها وقتا طويلا أحبوها بعطفى وأبثها اعجابى وحبى حتى اذا ما كان الليل استقبلت النوم قرير العين هادىء النفس ناعم البال .

على أن هذه الراحة لم يقدر لها أن تستمر طويلا ففى صباح يوم أقبلت فاتن على مكتبى فى المزرعة فى حالة هياج عصبى بالغ وما كادت ترانى حتى طلبت الانفراد بى فى كلمات ثائرة ملتهبة ، وأدركت للتو من حضورها على تلك الصورة أن وراء الأمر أخباراً منكرة ، وقد أصبت فى ظنى اذ ما كاد يخرج آخر رجل من المكتب حتى طرقت الموضوع الذى جاءت من أجله فقالت وعيناها الضيقتان تلمعان ببريق الحنق والهياج والغضب .

— اسمع ... اننى ما جئت الا لانذرك بأننى لم أعد احتمل تصرفات زوجتك أكثر مما احتملت ، فاذا لم تقلع عن جمودك وبرودك وتبادر بوضع حد لتصرفاتها ـ فأنى سأعرف كيف أوقفها عند حدها ـ

فوجف قلبى وارتعدت فرائصى وأخذت أحدق فى وجهها لحظة ثم قلت

— زوجتى ! ما خطبها ؟ ـ

فراحت تهدر قائلة ـ لست أدرى اذا كنت تعرف شيئا عن الطريق الوعر الذى تسير الآن فيه أم لا ، ولكنى سأجعلك تعرف كل شىء ، أنها تستغل طيبتك وثقتك العمياء استغلالا شائنا منكرا ، أنها فتاة لا تعرف حدا للفضيلة ولا ... ـ

فقاطعتها وأنا انتفض ـ صه ، ما هذا الذى تهذين به ؟ ـ

فقالت فى غضب ـ لا تقاطعنى ، أننى أدرى الناس بهذا النفاق الذى تتكلفه زوجتك معى ومعك لأننى على علم بكل ما يدور بينها وبين توفيق فى الخفاء ـ

فانقبضت عضلات قلبى وتطلعت اليها فى فزع ثم قلت ـ فاتن !! كيف تجرئين على اتهامها بهذه التهمة وكلنا نعرف أنها ... ـ

فقاطعتنى ـ تلك هى الحقيقة ، وإذا كنت فى ريب فافتح عينيك وراقب زوجتك ، راقبها جيدا وحينئذ ستعرف تماما حقيقة علاقتها الآثمة بتوفيق ـ

فصحت فى دهشة ـ علاقتها الأثيمة !! ما أفظع ما تقولين ـ

فقالت ـ ألا تصدق ، اذن دعنى أعيدها مرة أخرى على مسمعك ، دعنى أصارحك بأنها خانتك معه أكثر من مرة ـ

فوثبت من مكانى كالمجنون وقبضت على ذراعها وأنا أهزها بقوة

ـ تكلمى.. ، صارحينى بالحقيقة ، والويل لك إذا كانت غيرتك الحمقاء هى التى دفعتك إلى هذا الكلام ـ

فضحكت ضحكة هستيرية وقالت ـ ها ، .. يا لك من مسكين ، أتريد أن تعرف ما حدث أثناء غيابك ، أتريد أن أبوح لك بالنبأ الخطير ، أتريد أن تعرف ما تم بينهما يوما أثناء غيابك ، إذن فاعلم أنهما تسللا معا إلى المزارع فى الظلام حيث قضيا ساعات فى خلوة لم يعودا منها إلا فى ساعة متأخرة من الليل ـ

وصعقت لهذا التصريح وقلت ـ فاتن ، أواثقة أنت مما تقولين ، تكلمى ، أواثقة أنت من صحة هذا الخبر ـ

فقالت وهى تترنح بين يدى ـ اننى واثقة منه وثوقى من وقوفى الآن أمامك ـ

فسألتها ـ وكيف عرفت ذلك ؟ ـ

ـ رأيتهما من النافذة عند عودتهما خلسة ولقد زاد وثوقى عندما تسلل توفيق الى دارها فى الليلة التالية ـ

فقلت وأنا استند الى حافة المكتب لأتحاشى السقوط ـ ربما لم يكن ذاهبا اليها ـ

فقالت ـ أظننى أجدر بالمعرفة لأننى رأيتهما بعينى رأسى بعد ذلك وهما يتسللان الى الخارج فى الظلام ، ولقد حدث هذا أثناء

وقوفى فى النافذة وعندما حاولت اقتفاء أثرهما كانا قد غابا بين أعـواد القصب ـ

ـ وماذا قال لك توفيق بعد عودته ؟

ـ لم أشأ أن أظهره أو أظهرها على وقوفى على سـرهما مخافـة أن أثير حنقه وموجدته على ـ

فاقتربت منها وقلت ـ اسمعى يافاتن .. ان هـذا أفظع نبأ سمعت به فى حيـاتى ، ورغم أننى أميـل الى تصـديق روايتك الا أننى لازلت أشك فى أقـدام حورية على مثل هذا العمل الشـائن ، ولذلك فانى أرجو أن تتكـتمى الخبر الى أن أتأكـد بنفسى من صحتـــه ـ

فقالت فى انفعال ـ اذا كنت لاتصدق فراقبها ، راقبها جيـدا وخير ماتفعله أن تتظاهر بالسفر لتداهمها على غرة ـ

فقلت وأنا ارتجف ـ هذا ما سأفعله ، ولـكنى أرجو أن تعينينى على مهمتى بالتزام الـكتمان ـ

فقالت وهى تهم بالانصراف ـ ليـكن لك ماتشاء ... الى اللقاء ـ

الفصل الثانى عشر

وكان هذا النبأ بمثابة صاعقة انقضت على فمزقت أعصابى تمزيقا ، وبقيت ساعة فى مكانى لا أدرى ماذا أفعل من هول ما كان يتنازعنى من عواطف وانفعالات ، وما يحتدم فى قلبى من ثورة وهياج ، وحالما عاودتنى القدرة على التفكير بعد أن هبطت هذه الأنباء الى قرارة نفسى أخذت أفكر فيما ينبغى عمله على ضوء هذه الأنباء الخطيرة المروعة ، وقضيت فى ذلك زمنا قمت بعده وقد جمعت العزم على وضع حد لحالة الشك والريب التى أرهقتنى وهشمت أعصابى . وكانت الخطة التى انتويت انتهاجها أن أتظاهر بالجهل لاستدراج حورية فاذا لم أصل من ذلك الى غاية واضحة هيأت لها فرصة للاجتماع بتوفيق فى وجودى لعلى أقع أثناء حديثهما على ما يفضح سرهما ويكشف دخيلة نفسيهما فاذا لم أصل من ذلك الى نتيجة لجأت الى المشروع الأخير الذى اقترحته فاتن .

وعندما بلغت دارى فتحت لى الخادمة الباب وكانت حورية فى ذلك الوقت جالسة فى ركن من القاعة تخيط ثوبا لى

فلما أحست بمقدمى تركت ما بيدها ونهضت تستقبلنى وتقول فى بشاشة ـ شوقى ، كم أود أن تلقى نظرة على هذا الثوب ، انه يناسبك تماما ـ

فامعنت النظر الى وجهها الشاحب لحظة ثم قلت ـ آه ، حقا ما أجمله ، شكراً لك ـ

فقالت وهى ترمقنى بنظرة فاحصة ـ ماذا ؟ يخيل إلى أنك لست مسرورا اليوم ، هل حدث شىء ؟ ـ

فقلت وأنا أرقب اصفرارا كئيبا يتسلل الى وجهها ـ كلا ، كل ما فى الأمر أننى متعب للغاية ـ

ومع أننى نجحت فى اخفاء شعورى الا أننى أحسست بأننى أرسلت الى نفسها شيئا من التوجس والريبة ، فلما صعدنا الى الطابق العلوى وبدأت فى خلع ملابسى كان القلق واضحا على ملامحها والاضطراب ظاهرا فى نبرات صوتها ، واتصلت بيننا لحظات صامتة لم نعرف فيها كيف نقول ، ولكن كان لا بد لى أن أقول شيئا ، وكان لابد لى فى الوقت نفسه أن أتخير أنسب الألفاظ للتعبير عن فكرتى الوعرة المتناول فالتفت اليها وقلت وأنا أتصنع عدم المبالاة ـ ياله من يوم لعين ، لست أدرى لماذا تأبى المتاعب الا أن تتجمع كلها فى يوم واحد ـ

فتطلعت إلى فى اضطراب وقالت ـ متاعب !! وهـل لهـذا من سبب ؟ ـ

فأجبتها ـ طبعا ، وسبب ذلك تعرفينه تمام المعرفة ـ

فانتفضت انتفاضة مروعة واصفر وجهها وقالت ـ أنا .. ترى ما هو ؟ فقلت وأنا أجاهد رعدة عنيفة ـ لا أخالك نسيت هذا الموسم وما يتسم بـه من مشاكل بين المزارعين ، وقد عنانا منه اليوم خطب كاد يكون وخيم العاقبه لولا تداركى اياه فى الوقت المناسب ، أتعرفين جارنا حافظ بك ؟

وهنـا سكن اضطرابهـا وانبسطت أسـارير وجههـا وقالت ـ أجل ... ما خطبه ؟ ـ

فقلت ـ لقد وقع بين رجاله ورجالنا نزاع كاد يفضى إلى مجزرة لولا مسارعتى ومسارعته إلى فضه بالحسنى ـ

فقالت ـ نعم ما فعلتما ـ

فقلت ـ انى أومن بسهولة التغلب على المصـاعب إذا ركـن الانسان إلى الحـكمة والتعقل ، وهذا ما فعلته اليوم فان الرجل ماكاد يدعونى إلى زيارته حتى لبيت دعوته وقضيت معه ومـع أبنائه وقتا انفقناه فى أحاديث ودية للغاية ، وبهذه المناسبة هل صحيح أنـك اخترقت مزرعتهم ليلتين متتابعتين دون اخطـارهم

بذلك ؟ ـ

فندت عنها صرخة مكبوته واصفر وجهها اصفرارا شديدا وقالت
ـ أنا !! يا الهى ، كيف يجرءون على تلك الفرية ؟ ـ

فقلت ـ عجبا ، ألم تذهبى إلى هناك حتى ولو على سبيل التريض ؟ ـ

فارتجفت أهدابها وشحب فمها القانى وقالت فى صوت متهدج
ـ ابدا ... ابدا ... أقسم لك ـ

فقلت وأنا أرقب سحنتها المتقلصة ـ وعلام القسم ياحورية ، أن هيئتك توحى إلى أنك صادقة وأن كنت أرى أن الأمر فى حد ذاته بسيط ـ

وتوجهنا إلى غرفة المائدة وجلست بجوارها وأنا أحس هذا التردد بين الشك واليقين وبين اليأس والرجاء ، ولكن ميلى الى الشك مالبث أن قوى واشتد حين صحبتها فى مساء اليوم التالى إلى دار رسمية هانم ، فانها ما كادت تلقى (توفيق) وما كادا يتصافحان ويبدءان الحديث حتى استيقنت من حركاتهما المستترة ونظراتهما المريبة المختلسة ما أرسل الريبة إلى نفسى وقوى الشك فى قلبى ، ولم أحاول فى هذه المرة أن ألتمس التأويل والتعليل فقد كانت كل المظاهر التى كانت تختلف على وجهيهما حين يتحدثان وحين يصمتان تدل دلالة واضحة على وجود صلة جديدة مريبة

بينهما ، وأى صلة تنتظرها بين هذا الشاب الأباحى المستهتر وبين زوجتى الحسناء الفاتنة التى تشتهيها الأعين ، أنها أن لم تكن صلة خزى وإثم وعقوق فهى على أقل تقدير صلة مبرأة من الطهر والنقاء .

وفى أثناء السمر صمت لحظات قاسية أخذت أرقب فيها فى حسرة هيكل حبى وهو ينقض حجرا فوق حجر ، واتأمل فى ألم عواطف الأعزاز والتقدير وهى تتهارب إلى زوايا عقلى وتتردد هناك كأصداء عهد غفلة لا مثيل له .

ثم أخذنا نتحدث كما تعودنا أن نفعل فى كل سهرة وأشهد انى وفاتن قد أظهرنا فى تلك الليلة من الصبر والاحتمال ما لا يطيقه بشر ، وليس معنى ذلك أنهما خرجا أمامنا عن حدود الوقار والاحتشام ، كلا ، ولا ظهر عليهما ما يثير فى نفس الانسان العادى ما يريب ، ولكننا لعلمنا بدخيلة نفسيهما كنا نعلم مغزى كل نظرة ومعنى كل كلمة وهدف كل أشارة ، وفى نهاية السهرة لم يودعنا توفيق إلى باب الحديقه كما كان يفعل دائما ولكنه اكتفى بتوديعنا عند الباب الداخلى وعندما صافحنا قال لنا ـ الا تخرجان غدا للصيد ؟ ـ

فقلت ـ كما تشاء ، ولكن الا يحسن أن نرجىء ذلك الى اليوم

النالى ؟ ـ

فقال ـ حسنا ، ولسوف ترى حورية كيف أنافسك فى السبق والصيد معا ـ

فقالت حورية باسمة ـ انى لا أحب ركوب الخيل ولا صيد الطيور ، ومن أجل ذلك لا أحب أن أحضر ـ

فقال بلهجة الآمر ـ كلا ، يجب أن تحضرى ولسوف أعلمك الرماية بنفسى ـ

فأجابته ـ أرجو أن تعفينى من ذلك لأننى لا أجد من نفسى ميلا اليه ـ

فقال ـ لن أعفيك بحال ، فقولى بأنك ستحضرين ـ

فقالت مستسلمة ـ اذا كنتم ترون وجودى ضروريا فسأحضر ـ

وكان سر هـذا الاستسلام مفهوما ... لقد امتلكها توفيق واستولى على قيادها وأصبحت متاعا هينا بين يديه .

وعندما عدنا إلى دارنا قضت حورية وقتها فى التودد إلى وملاطفتى واغراقى بسيل جارف من عواطفها ، وكان السر فى ذلك الاندفاع مفهوما أيضا فقد كان هذا كله محاولة منها للتكفير عن خطيئتها أو ذرا للرماد فى عينى حتى لا أراها ، على أن أمد هذا الخداع لم يدم طويلا فما كادت تنقضى على ذلك ساعات حتى

وقعت مفاجأة لم تكن تخطر لى على بال ، وأنى لأذكر هـــذه الحـــادثة كأنها وقعت بالأمس لغرابتها وشذوذها ، فبعد أن قضينا وقتا فى سمر ممل ثقيل اوى كل منا الى فراشه ، وكان فراشها يقع فى الطرف الآخر من حجرة النوم ويفصله عن فراشى مقعد كبير ، ولم أستطع النوم عدة ساعات تلك الليلة فقد ظل عقلى مشغولا بما رأيت أما هى فما أسرع ما غلبها النعاس فتمددت فى فراشها وراحت فى نوم عميق ، وبقيت أتململ فى فراشى الى أن أخذتنى سنة من النوم استيقظت بعدها فجأة على صوت حركة خفيفة فى القاعـة المجاورة فأمسكت أنفاسى وانتظرت لحظـة وحينما تحـولت ببصرى ناحية فـراش حـورية راعنى أن رأيته خاليا وفى اللحظة التالية أحسست بتيار من الهواء ينساب الى من القاعة ثم رأيت ظلا من الضوء الخافت يتأرجح على الحائط المقابل يمينا وشمالا فى حركات رتيبة منتظمة كدقات الساعة ، وتذكرت للحال أن تيار الهواء لا يمكن أن يأتى بهذه القوة الا عن طريق باب الشرفة فى القاعة الخارجيه المطـلة على المزارع والذى كنا نحرص دائما على اغـلاقه كل ليلة قبل النوم ، وترددت لحظة ثم رفعت عنى الغطاء فى هدوء وبذلت بعض الجهد كى أهبط دون أن أحـدث حركة أو صوتا ثم مشيت عـلى أصابع قـدمى حتى

بلغت باب الحجرة وانتظرت ، وحين مددت بصرى رأيت ما توقعته فقـــد كان باب الشرفة مفتوحا أما الشيء الذى لم أكن أتوقعه فهو الذى رأيته بعد ذلك ، فقـد رأيت حورية واقفة بجوار حافة الشرفة وبيدها قنديل تحركه ذات اليمين وذات الشمال وبين وقت وآخر كانت تقف لترقب ضوءا قاتما يتحرك بنفس الطريقـة من بعد بين المزارع ، ولم أر شيئـا بعد ذلك لأنها ما كادت تبتدير حتى اسرعت ووثبت الى فراشى وتظـاهرت بالنوم وبعد لحظة قصيرة تسللت حورية الى فراشها وانكمشت فيـه الى الصبـاح .

وفى الصبـاح خرجت مبكرا وأنا اتـكلف البشاشة ثم عدت بعد الظهر وأعلنتها باضطرارى الى السفر الى عزبة يونس بك لتفقد الحـال هناك ، وعندئذ تطلعـت الى وقالت ـ ألا تأخذنى معك كما وعدت ؟ ـ

فقلت ـ اننى لن أغيب طويلا هـذه المرة ، انهـا مسألة يوم أو يومين على الأكثر ـ

وخيل الى أنها ارتاحت لفـكرة سفرى المنفرد وبعد ساعـة قبلتها مكرهـا وودعتها وانصرفت ، ثم ركبت عربة أوصلتنى الى محطة نجع حمـادى وهناك أمرت السائق بالتوجه

الى مكتب التذاكر لشراء تذكرة الى المنيا فلما جاءنى بها صرفته ويممت ناحية الافرنج ، وعندما جاء القطار قفزت اليه وأخذت مكانى فى ديوان منعزل ، ومضى القطار يقطع طريقه صوب الشمال ولكن بدلا من أن اهبط فى المنيا هبطت فى محطة جرجا وهناك اعتكفت فى أحد الفنادق الى أن هبط الظلام وعندئذ أخذت القطار العائد ورجعت الى نجع حمادى ، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء حينما تقدمت الى باب منزلى بخطوات بطيئة متسللة وعندما وقفت امام الباب شعرت بقلبى يخفق ، وبحلق يجف والعرق يندى من يدى من هول ما أنا مقبل عليه .

وتمالكت نفسى وطرقت الباب ، ومضت دقيقه دون أن أسمع صوتا فطرقت الباب للمرة الثانية فى شىء من العنف وعلى أثر ذلك سمعت وقع خطوات سريعة تقترب وكنت أقدر أنى سألقى الخادمة ولكنى ما كدت ادفع الباب حتى رأيت نفسى امام حورية وجها لوجه ، وما كادت ترانى حتى حملقت الى فى ذعر وارتباك وخيل الى فى تلك اللحظة اننى سمعت صوت أغلاق الباب الخلفى المؤدى الى المزارع فقدرت فى بساطتى لأول وهلة أن الخادمة هى التى أحدثت هذا الصوت وان خامرنى

وسواس بعث الريبة فى قلبى ، وعندما نظرت الى حورية رأيت نظرتها تشف عن لون غريب من القلق ولكنها مع ذلك جاهدت حتى ارتسم على شفتيها ظل ابتسامة ثم قالت ـ كم يسرنى انك عدت سريعا ، أم تراك عدلت عن السفر ؟ ـ

فقلت ـ لم أسافر لأنه لم يكن لى بد من البقاء لانجاز بعض أعمال عاجلة ـ

فقالت وهى تختصب ابتسامة رقيقة ـ لقد أحسنت صنعا ، هل أعد لك العشاء ـ

فأجبتها ـ يحسن أن تدعى هذا للخادمة وتعالى معى لنتحدث قليلا ـ

فقالت فى قلق وتعثر ـ ألا تنتظر قليلا حتى أعده بنفسى ـ

فقلت وأنا أتأمل اضطرابها ـ لاداعى ، نادى الخادمة ، ولكن انتظرى سأذهب اليها بنفسى ـ

فقالت لاهثة وهى تكاد تتشبث بذراعى لتحول بينى وبين الذهاب ـ آه لقد نسيت أن أخبرك ، لقد خرجت انصاف لزيارة أهلها ولما تعد بعد ـ

وما سمعت هذا الكلام حتى سرت فى كيانى رعدة قوية ولم ألبث أن تركتها ومضيت أنظر هنا وهناك فى جنبات المنزل ثم عدت اليها وقلت فى صوت رهيب ـ اذن فمن هذا الذى كنت تقضين

السهرة معه ؟ ـ

وسرعان ماتبدلت ملامح وجهها تبدلا منكرا وراحت تحدق فى بعينين جاحظتين فاحصتين ثم قالت ـ ماهـذا الذى تقوله ياشوقى ؟ ماذا تعنى ؟ ـ

فقلت ـ المعنى عندك وحدك ـ

فقالت فى انزعاج ـ لست أفهم ياشوقى ، ماذا تقصد بهذا الكلام ـ فقلت وأنا أصرف على أسنانى غيظا وحنقا ـ أقصد أنك أمرأة دنسة غادرة ، أقصد أنك كنت تلوثين شرفى مع توفيق كما لوثتماه من قبل عشرات المرات ـ

فقاطعتنى وهى تتراجع الى الوراء وتضم يديها فى عنف ـ أنا ! ! حرام عليك ياشوقى ، أأنت الذى ترمينى بهذه التهمة ، أأنت الذى تقول هذا الكلام ياشوقى ـ

فصحت فى وجهها مزمجرا ـ أيتها الفاجرة ، لاتحاولى خداعى ... اننى أعرف كل شىء ـ

فترنحت فى وقفتها حتى ظننتها ستقع مغشيا عليها ثم قالت

ـ أقسم لك أنك مخطىء ، انك لاتدرى شيئا ياشوقى ، انك لاتعرف شيئا فأتوسل اليك ألا تسرف فى اتهامى ، آه لواستطيع أن أجعل قلبك العزيز يعرف الحقيقة ـ

فقلت مزمجرا ـ كفى أيتها الوضيعة الدنسة ، لقد وقفت بنفسى على خيانتك واثمك وسأتولى بنفسى عقابك وعقابه ، سأريك كيف يحاسبك هذا المخدوع الذى وطأت قلبه بقدميك ولوثت شرفه بالعار ـ

وكانت تنصت لى وهى ترتجف أمام نظراتى الملتهبة فلما فرغت من كلامى قالت فى صوت يختنق بالدموع ـ شوقى ، بالله تريث وسأبوح لك بالحقيقة ، أتوسل اليك أن تمنحنى فرصة ... ـ فقاطعتها وأنا أندفع فى ثورة الى الباب الخلفى ـ الويل لك ياشقية اذا كنت بهذا قد مهدت لافلاته ... تالله لأنزلن به أشد عقاب ـ

فهمت أن تتشبث بذراعى ولكنى بادرتها بلكمة سكنت عند فكها وأطاحت بها أرضا ، ولم أقف بل اندفعت نحو الباب الخلفى ورحت أفتش فى الحديقة والحقول المجاورة باحثا عن غريمى ، عن الرجل الذى مزق شرفى وسحق قلبى وعرضنى للعار ، ولكنى لم ألبث أن عدت أدراجى بعد أن أعيانى البحث ، وكانت حورية فى ذلك الوقت تحاول الوقوف على قدميها من أثر اللكمة فلما وقع بصرها على وأنا اقتحم عليها القاعة فى ثورة وجنون تراجعت الى الوراء مذعورة وصاحت فى توسل ورعب ـ رباه ، لا .. لا ... ، لا تقتلنى ياشوقى ، أنا بريئة ، أنا بريئة

أقسم لك أنى بريئة . أقسم لك أنك ستندم على فعلتك اذا عرفت الحقيقة ـ

ولم أعبأ بصراخها وتوسلها فاندفعت عدة خطوات الى الأمام ثم لطمتها لطمة قوية هوت من هولها على الأرض وهى تئن وتتلوى ولم أمهلها وانما انحنيت عليها وأخذت أوسعها ضربا وركلا حتى انبثق الدم من فمها وسال غزيرا على وجهها وصدرها ثم تحولت عنها وأسرعت إلى غرفتى واختطفت مسدسى وانطلقت الى دار رسمية هائم فى طلب توفيق ، وكانت فاتن أول من صادفنى هناك فلما لمحتنى صاحت فى رعب .

ـ رباه ... ماذا تريد ؟ ـ

فتحيتها عن طريقى فى عنف ووثبت الى الداخل وأنا أصيح

ـ أين توفيق .. أين زوجك الفاجر ؟ ـ

فقالت وهى ترتجف ـ آه ، ماذا جدث ؟ ـ

فصحت فى هول ـ أين هو ؟ ـ

ـ أنه لم يعد بعد ـ

ـ أنك تكذبين ... تكلمى ، أين هو ـ

ـ أقسم لك أنه لا يزال بالخارج ـ

ـ متى خرج ؟ ـ

ـ بعد العشاء ـ

وجاءت رسمية هانم على أثر ذلك منزعجة وما رأتنى حتى صاحت فى رعب .

ـ يا الهى ! ما خطبك يا أستاذ شوقى ؟ ـ

ـ انى أبحث عن توفيق الذى لوث شرفى ـ

فصرخت وهى تدق صدرها ـ يا الهى .. ماذا تقول ؟ ـ

فقلت وأنا اندفع نحو غرفته ـ أكرر عليك ما قلته ، لقد لوث الفاجر شرفى وعبث به وإذا أردت أيضاحا فاطلبيه من فاتن ـ

وتركتها ورحت أفتش سائر الحجرات ولما لم أعثر على ضالتى خرجت ساخطا مزمجرا وانطلقت إلى الخارج وأخذت أعدو فى العراء الى أن لحقت بى رسمية هانم مع بعض الخفراء وما زالوا بى حتى أثنونى عن عزمى وعادوا بى الى دارى ، وكانت فاتن وبعض الخدم قد سبقونا الى هناك ليروا ما حل بحورية فلما بلغنا الدار أسرعوا الينا وأعلنوا الينا النبأ الخطير ... نبأ اختفاء حورية وعدم العثور لها على أثر .

الفصل الثالث عشر

وقضينا ليلتنا الرهيبة فى بحث وتفتيش وترقب وانتظار فلما ارتفع الضحى من الغد دون أن يعود توفيق أو يظهر أثر لحورية أيقنا بأن الشقيين الغادرين آثرا الفرار تجنبا للأذى ورغبة فى الفراغ لنفسيهما بعيدا عن أعين الرقباء ، وفى اليوم التالى أرسلت رسمية هانم إلى يونس بك تنبئه بالخبر وتستفسر منه عما إذا كان قد بلغه عنهما نبأ فلما جاءنا رده بالنفى زاد وثوقنا فى انعقاد نية الهاربين على الاختفاء ، ومضت أيامنا بعضها فى اثر بعض وأمور الحياة فى الضيعة تضطرب بين الحزن الصامت والأسى الممض وبين تكلف الانصراف عن المحنة الى أسباب العيش وشواغله ، ورغم أن حظى من هذه الكارثة كان أفدح من حظ الآخرين ، الا اننى كنت أشدهم صبرا وأكثرهم على المصيبة احتمالا ، فأما رسمية هانم فقد هدتها النكبة هدا لشدة ما عراها من جزع وأسى وأسف ولكن كان عليها أن تعتصم بالصبر وتتظاهر بالتجلد لتبث فى نفس فاتن وفى نفسى الشجاعة ، وتعيننا على احتمال الكارثة ، وأما فاتن فقد انتابها هياج عصبى

شديد لفرط حبها لتوفيق وشديد تشبثها بذكراه ، ومن ثم أغلقت دونها بابا واعتصمت بالعزلة وصرفت همها الى التفكير فيه فى صمت مطرق حينا وفى انفعال وهياج جائح حينا آخر .

ومضت أيام أخرى أحسست بعدها بضيق لا حد له منشؤه تجلى من الحياة فى هذه البيئة التى شهدت غدر زوجتى وارتجت من هول خيانتها هذا الى جانب أن المعيشة فى دارى كانت تكرهنى بطبيعتها على الاستسلام للخواطر المزعجة وتهيىء لى الأسباب لاستعادة صور ماضى الدامى وذكرياته الأليمة وعذاباته المضنية . ومن ثم عولت على اعتزال خدمة رسمية هانم وبيت النية على مبارحة هذا الفردوس الملعون فى أقرب فرصة ممكنة . وانتهزت لذلك وقتا قل فيه نصيبى من العمل فتوجهت الى دارها وكاشفتها بهذه الرغبة ، وما كدت أفرغ من كلامى حتى بان الجزع والارتباك على محياها وغاصت فى التفكير قليلا ثم قالت

— انى لا أوافق على ذلك بتاتا لأننى فى مأزق من شر المآزق وأحرجها يا أستاذ شوقى ، ولقد زاده سوءا تطور حالة فاتن تطورا مزعجا للغاية ، فكيف بالله تتركنى لمواجهة كل هذه المتاعب وحدى —

فسألتها ـ ألم تخفف المسكنات من حدة هياجها ؟ ـ

فقالت فى أسف ـ كلا ، فحالتها تسير من سيء الى أسوأ وهى لاتكاد تكف عن البكاء والعويل حزنا على ضياع زوجها ـ

فقلت ـ عجبا ، أما زالت مقيمة على حب هذا الشيطان رغم كل ما حدث ـ

فقالت فى ألم واشمئزاز ـ ليس هذا هو العجيب من أمرها انما العجيب أن حبها له ازداد قوة وعنفا عما كان عليه من قبل ، ولقد حاولت أن أرفه عنها لأعفيها من آثار هذه اللوعة الطائشة والحب المخبول فما أفلحت ، ولست أدرى والله ماذا دهى فتيات هذا الزمن ، واحسرتاه ، لماذا ضعفت نفوسهن وانحطت أخلاقهن الى هذا الحد ـ

فقلت ـ لقد كانتا بخير وكان من الممكن أن تظلا بخير لو لم يمسها الشيطان وينفخ فيها من روحه ـ

فاغمضت عينيها لحظة ثم قالت ـ عليك لعنة الله ياتوفيق ، من كان يظن أن مثل هذا الجسد يضم بين جنبيه تلك الروح الشريرة ـ ورأيت بعد ذلك أن أعود الى الموضوع الذى جئت من أجله فقلت

ـ والآن يارسمية هانم أريد أن تعينينى على وضع حد لمتاعبى

وآلامى ، ان استمرار بقائى فى العزبة أصبح أمرا لاطاقة لى باحتماله ـ

فقالت ـ اننى أدرك تماما ما تعانيه ولكن دعنى أصارحك بأننى لا أقر بحال هذا الاستسلام من شاب قوى الارادة عالى الثقافة مثلك ، ان الشجاعة تقتضى أن تواجه الواقع كما وقع لأنه ليست هناك ثمة فائدة ترجى من الحزن والأسى واليأس فى موقف كهذا ، حقا لقد أضنانى وأوجعنى ما آل اليه أمر حورية ولكنها وقد اختارت لنفسها هذا المصير الشائن فقد حقت عليها اللعنة ووجب نبذ سيرتها نبذ النواة ـ

فقلت ـ ثقى بأننى لم أعد أحمل لها ذرة من الحب ولكن اصلاح الفساد الذى سببته يتطلب زمنا طويلا وجهدا غير يسير ـ

فقالت ـ هذا صحيح ، وخير ماتفعله فى هذا الشأن أن تتسلح بالعزيمة والارادة القوية ، وأن تفيض على نفسك من ألوان التسلية مايكفل صرفك عن التفكير فى هذه المأساة ، واذا أردت نصيحتى فانى اقترح أن ترتحل الى لبنان للاستجمام والراحة ـ

فقلت ـ هذه فكرة خطرت لى فعلا ، ولكن كيف السبيل إلى تحقيقها وقد أبيت أعفائى من خدمتك ـ

ـ اننى على أتم استعداد لأن أمنحك اجازة كل عام وفى هذه

الحالة يستطيع شنودة أفندى أن يتولى عملك لحين عودتك ـ فسكت لحظة ثم قلت ـ انى صراحة كنت متلهفا لترك الضيعة ولكنى أمام عطفك ومودتك لا أستطيع الا الاذعان راضيا لمشيئتك ـ

ونهضت على أثر ذلك فشدت على يدى بحرارة وقالت ـ شكرا لك يا أستاذ شوقى ، انك بذلك تسدى الى جميلا لا أنساه ـ

ومضيت على أثر ذلك الى مكتبى فى المزرعة ومكثت به ساعة ثم خرجت وفى عزمى أن أجول جولة فى الحقول لتفقد شئون العمال كعادتى فى مثل هذا الوقت ولكنى ما كدت أسير حوالى نصف ميل حتى ساقت الى الريح صوت جلبة آتية من ناحية الشاطىء فاستدرت والتفت الى مصدر الصوت فاذا جمع من الفلاحين يظهرون فجأة من بعد ثم يتجهون ناحية مكتبى فى شىء من الاسراع وهم يحملون بين أيديهم حملا لم أستطع لبعد المسافة أن أتبينه فتوقفت قليلا وأنا أشعر بضربات قلبى تزداد وتشتد ثم أسرعت الى ناحيتهم وما كدت أدنو منهم وأتبين ما بين أيديهم حتى أجفلت وأخذتنى رعدة قوية قفز لها قلبى من مكانه ، ذلك أن الشىء الذى كانوا يحملونه لم يكن سوى جثة توفيق نفسه ، وكان الرجال فى ذلك الوقت قد دنوا من باب

المكتب فلما وقعت أبصارهم على أسرع بعضهم ناحيتى وأنبأونى بالخبر ، خبر عثورهم على الجثة بعد أن لفظتها مياه النيل على شاطىء العزبة المجاورة .

وهنا عاودتنى الرعدة وقلت فى شبة ذهول ـ وجثتها هى ؟ ألم تعثروا لها على أثر ؟ ـ

فأجابنى أحد الخفراء ـ كلا ، لقد بحثنا عنها فى جميع المزارع الممتدة على الشاطىء والشاطى المقابل دون جدوى ـ

فغمغمت اقول بضع كلمات مبهمة وأنا أجفف العرق المتصبب على جبينى ومشيت وهم من حولى الى مكان الجثة ثم وقفت على قيد خطوة منها وأخذت أرقب فى جمود جثة غريمى البشعة العفنة المنتفخة وهى طريحة غير بعيد من باب مكتبي ، والجسم لسانى من فرط انفعالى وبقيت كذلك لحظة ثم مضيت الى مكتبي وأنهيت النبأ تلفونيا إلى نقطة البوليس ، وما هى الا ساعة حتى أقبل رهط من رجال الشرطة والتحقيق وأقاموا حول الجثة يسألون ويتحرون ثم دخلوا معى إلى المكتب ومضوا فى أخذ أقوالى وان هم لكذلك اذا بصوت مزعج فى الخارج يقطع علينا ما كنا فيه ويكرهنا على الخروج لاستطلاع الخبر وما كدنا نظهر على عتبة الباب حتى رأينا (فاتن) تشق طريقها الى الجثة وهى

تولول وتصيح وتدفع الخفراء يمينا وشمالا حتى اذا ما بلغت مكانها ارتمت عليها وأخذت تقبلها وتضمها الى صدرها وهى تولول ولولة مثيرة مزعجة ، وجمد الجميع فى أماكنهم وهم يرمقونها بنظرات ملؤها الشفقة والرثاء ، أما أنا فلم يرسل هذا الموقف السخيف الى نفسى أية خلجة من خلجات الأسف والأشفاق ، ولم يكن ذلك بسبب عوامل الحقد والضغينة والشماتة التى أحملها لتوفيق ، وانما كان مرجعه إلى شعور الكراهية والزراية الذى أحمله لهذا الصنف البدين السمج من النساء ، ذلك الصنف الذى لايستحى رغم ثقل ظله من الكشف عن عواطفه جهرة أمام الناس ، وهممت أن أمضى لأحول بينها وبين الجثة ولكن نظرة شذراء ملتهبة من عينيها ما لبثت أن منعتنى من التحرك وألزمتنى مكانى ، ولما أدركت حرج مركزى أوعزت الى الضابط أن يتدخل لوضع حد لهذه المهزلة فأسرع مع بعض رجاله وما زالوا بها حتى خلصوا الجثة من بين ذراعيها ثم قادوها بعد جهد جهيد الى دارها .

وكان يجب أن أستقبل أيامى التالية بعد هذا المصرع هادىء النفس ، قرير العين ناعم البال ، وكان يجب أن أجد فى خاتمة توفيق راحة تستلذها النفس وشماتة يستعذبها القلب ورضا

يثلج الخاطر . ولكن من غريب الأمر انى لم أجد فى ذلك راحة ولا رضا ولا هدوءا ، اذ لم يكن بد من أن أفكر فى حورية وفيما انتهى اليه أمرها ، أحية هى أم ميتة ، أمقيمة هى فى هذه البلاد أم ارتحلت الى ديار أخرى تلتمس فيها مأمنا بعد الجريمة التى قارفتها والاثم الذى تورطت فيه ، ولم يكن ذلك دون أن يثير فى نفسى آلاما الى آلام وشقاء الى شقاء ، وما أكثر ما ترددت هذه الاسئلة فى نفسى وما أكثر ما جاش بها صدرى ولكنى كنت أكبتها فى ضميرى وأضغطها فى قرارة نفسى حتى لا تعذبنى وتغرقنى وتؤذينى فى جسمى وعقلى ، على أنى لم أستطع ذات صباح أن أملك من أمرى ماتعودت أن أملكه فخرجت أهيم فى القرى المجاورة باحثا مستقصيا وأخذت انتقل من مكان الى مكان ورحت أذرع الشواطىء القريبة والبعيدة حتى اذا ما أعيانى البحث عدت أدراجى مفرق النفس مبلبل الخاطر ، ثم استأنفت السعى فى اليوم التالى دون جدوى وأنفقت فى ذلك سبعة أيام متواليه استيقنت بعدها بأن حورية قد ذهبت الى غير رجعة وانه لن يكون بينى وبينها بعد اليوم لقاء ، هنالك تفجرت ينابيع اللوعة المكبوتة فى قرارة نفسى ، وانبثق حبها الكامن فى مطاوى قلبى ، واذا بذكرياتها تحيط بى

وتغمرنى ، واذا بطيفها وهو يصيح بى أنا بريئة... أنا بريئة...» يتعقبنى ويطاردنى ويأخذ على كل سبيل ، وأذا بصورتها تقتحم على أحلامى وتلونها بلون جديد غريب واليكم أحدها :—

« رأيت نفسى أسير بحذاء شاطىء بحر خضم شاسع وكان الطريق طويلا خاليا والبحر يرسل هديرا يصم الآذان وفى السماء طيور تتصايح وتضرب بأجنحتها فى الفضاء ، وأخذت أمعن فى السير الى غير غاية وفجأة لاح لى عن بعد شبحان ، رجل وفتاة ، ولم أستطع أن أميز الرجل فقد كان غامض السحنة مبهم الصورة أما الفتاة فكانت لدهشتى البالغة حورية. نعم، كانت حورية بقامتها الممشوقة الرائعة وفتنتها الناضرة وشعرها الفاحم المسترسل ، كانت كما عهدتها لولا هذه المسحة الحزينة التى تطغى على وجهها وتحيطه بهالة من الألم والأسى والخوف والحسرة ، وكانت عندما دنوت منها قليلا واقفة كتمثال مصنوع من ضباب وهواء ترقب الرجل أسفل الصخرة وهو يعد قاربا لهما على عجل ، وكان النسيم يعبث بثوبها وبخصلتها المدلاة على جبينها الوضاء ، وكان وهج الشمس الغاربة يرتمى على وجهها ويديها ويمتزج امتزاجا جميلا بسائر أجزاء جسمها البديع فوقفت أرقبها لحظة ثم رحت استحث الخطى خلسة ناحيتها وما كدت أسير خطوات

حتى انساب من جوانب الفضاء لحن جنائزى حزين خفقت له جنبات المكان ، وصمتت له كل الأشياء فى الأرض والسماء فى استتامة سكرى ، وأخذت بسحر الموقف وروعة المشهد فوقفت أرهف سمعى وأمد بصرى وقد هاجت شجونى وأدركنى شعور عميق من الحزن والوجد والأسى ، وتنبهت لنفسى بعد وقت فخطوت عدة خطوات سريعة أدنتنى من حورية وما كادت تحس بى حتى جفلت ثم نظرت الى بكل ما فى عينيها من سحر وطهر وحنان وهتفت .

ـ رباه .. شوقى ، لماذا جئت ؟ كيف اهتديت إلى مكانى ؟ ـ

فقلت ـ جئت من أجلك ياحورية خاصة ، وسوف أعود بك لنستأنف حياتنا من جديد ـ

فقالت وهى تحملق فى وجهى ـ لا .. لا ، لن أعـــود معك ، أناشدك الله أن تذهب ـ

فاقتربت منها وقلت ـ حورية ...عودى الى ، لا تتركينى وحدى ، انى مستعد للصفح عنك ونبذ الماضى ظهريا والى الأبد ـ

فامتقع وجهها حتى شابه بياض الثلج وقالت وهى تتوجع .

ـ أواه ، أما زلت تصدق هذا الأمر عنى ؟ ـ

فقلت ـ ما كنت لأصدق هذا الأمر عنك ، ولكن ماذا كان

بوسعى أن أصنع أمام غموض موقفك منى ، أخبرينى ياحورية وأصدقينى ، إذا كنت حقا بريئة فما سر هـذا التغير الذى طرأ عليـك ـ

فنظرت الى الرجل الغامض وكان فى ذلك الوقت مكبا على عمله فى القارب وقالت فى صوت محتبس ـ لا أستطيع أن أخبرك.. لا أستطيع ، هـذا محال ـ

فقلت فى ضراعة ـ بل انك تحسنين صنعا باخبارى والا كـنت ظـالمـتى ـ

فقالت وهى تتقهقر أمامى ـ كلا ... كلا ... ـ

فقلت ـ ولماذا ؟ ألم يعد لحبي مكان فى قلبك ياحورية ؟ ـ

فقالت والدمـوع تنهمر على خـديها ـ كلا ، أقسم لك أننى لن أنساك ماحييت ، أقسم لك أن حبك هو كل شىء لى فى الوجود ، فاذهب وليتولاك الله برعايته ـ

وخطت بضع خطوات الى الوراء ثم هوت من فوق الصخرة فتلقاها الرجل الغامض بين ذراعيـه ودفعها بسرعة الى القارب وقبل أن أتحرك من مكانى كان قد أعمل مجدافيه وأسرع بالزورق بين العباب . فوقفت فـوق الصخرة مسمر القـدمين أحدق فى الخضم الماثل وأرقب الزورق وهو يتوارى بين أثباج

الموج وقد تخدرت قواى وتخاذلت أعصابى وبح صوتى وبعد لحظة سقطت سقطة أفقت على أثرها من نومى وجسمى ينتفض والعرق يتصبب من جبينى .

وقضيت فى ذلك عدة شهور عانيت فيها من الأرق والعذاب ما أذبل قواى وحطم أعصابى ، ولولا أن رسمية هانم أسرعت وحرضتنى على السفر الى القاهرة لقضاء بضعة أسابيع مع أمى للتريض والترويح عن نفسى لفسدت حياتى وانتهى الأمر بى الى الجنون.

الفصل الرابع عشر

ولم يكن لى بد من الاستجابة لاقتراح رشيد هانم إذ كنت فى مسيس الحاجة إلى الراحة والابتعاد زمنا عن الضيعة حتى استعيد قواى واستيقن من قدرتى على العودة الى العمل ، وعندما وصلت الى دار يونس بك هرعت أمى لاستقبالى وتلاها زوجها على مهل فلما وقع بصرهما على وجهى ولاحظا ما عراه من شحوب وتحول بانت على ملامحها مظاهر الألم والجزع، وكانت أمى أول من تحدث عن ذلك حين التفتت الى وقالت ـ شوقى ، أنك تغيرت تغيراً يثير القلق ، هل أنت مريض ؟

فأجبتها ـ كلا ، ولكنى فى حالة شديدة من الأعياء ـ

وعندما جلسنا فى غرفة الاستقبال قال يونس بك .

ـ اننا أعلم الناس بما تعانيه يا شوقى ، ولكنى ما كنت أظن أن شابا له مثل صفاتك يضعف هكذا أمام أول لطمة من لطمات القدر ـ

فقلت ـ انك لا تدرى كم جاهدت ودافعت ولكن الكارثة غلبتنى وحطمتنى ـ

فقال ـ لاتدع اليأس يتسلط عليك ياشوقى ، نعم أن خطبك خطب جلل ولكن ماينبغى أن تنهار عزيمتك أمامه بهذه الصورة ـ

وهنا قالت أمى ـ لاتأسف ياشوقى ، ان هذه الحالة لن تدوم وثق أن الله سيعوضك عنها خيرا ـ

وكانت وليمة الغداء فى اليوم التالى أشبه بحفل عائلى تشوبه المحبة والصفاء ولولا الانقباض الذى طرأ على محيا يونس بك عندما مس الحديث مصرع توفيق لما شاب الحفل البهيج أية شائبة ولقد تلمست الحيرة فى وجهه عندما قال

ـ اذن لم يكن هناك من الظواهر ما يدل على أن فى الأمر جريمة ؟ ـ

فبدت لى ملاحظته غاية فى الغرابة وقلت ـ كلا ، وكيف يحدث ذلك وقد مات غرقا ـ

فقال ـ انك أجدر بالمعرفة طبعا ـ

فقلت ـ تلك هى الحقيقة ولا شك أن موته على هذه الصورة كان قصاصا عادلا ـ

فقال ـ حقا ، تلك عاقبة ما قدمت يداه ـ

قال ذلك ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته ونهض على الأثر قبل

أن يستوفى طعامه وهو يقول

ـــ أرجو المعذرة اذا تركتكما فجأة اذ لابد لى أن أذهب فى الحال الى الشركة لانجاز بعض الأعمال العاجلة ، وبهذه المناسبة أرجو الا تقلقا اذا تأخرت فقد يقتضى الأمر سفرى الى الاسكندرية والبقاء فيها بضعة أيام ـ

فنظرت أمى اليه وقالت ـ مادام الأمر كذلك فأرجو أن لا يغيب عن بالك استئجار (فيلا) مناسبة لنقضى فيها فصل الصيف مع شوقى ـ فقال فى بشاشة ـ آه ، لقد أحسنت صنعا بتذكيرى ، ولسوف يكون ذلك أول شىء أفعله لدى وصولى ـ

قال ذلك ثم ودعنا وانصرف .

وقضيت مع أمى أسبوعا جهدت فيه فى التخفيف عنى وشغلى عن حزنى وضيقى بما كانت تفيضه على من العطف والحنان ، وما كانت تهيئه لى من أسباب المرح والتسلية فى ملاهى القاهرة ومجتمعاتها ، وفى نهاية الأسبوع عاد يونس بك من مهمته ورغم أنه حاول أن يظهر فى أقواله وأفعاله بمظهره العادى الا أننى أحسست أنه يعانى اضطرابا خفيا يتجلى فى نظراته القلقة الشاردة ، وحركاته المتعثرة واعيائه البادى ، ولست أنكر أن هذه الحالة قد أربكتنا وأذهلتنا خاصة وقد كنا نعلم أن أمور

شركته المالية فى تحسن مستمر، وليس أوضح فى بيان اضطراب أعصابه بما حدث بعد ثلاثة أيام من وصوله عندما كنا جالسين بعد العشاء نرتشف القهوة ونتجاذب أطراف الحديث الذى تناول ضمن ما تناول سيرة نجع حمادى ، وكان الهدوء يشملنا جميعا عندما ألفيته يضع فنجان القهوة فجأة ويقول فى حدة ـ كلا ياشوقى ، حسبك من هذه الذكريات الأليمة ما سردت ـ

وتزايد القلق فى مقلتيه وكست وجهه تلك السيماء المنقبضة المقفرة التى كانت ترتسم على محياه يوم ذهب وعاد من رحلته الغامضة فى نجع حمادى ، وبعد لحظات تركنا فجأة ومضى الى غرفته وأطفأ النور ثم اضطجع على أريكة وأشعل سيجارة واستغرق فى التفكير . وفوجئت بهذه العبارة الخشنة وهذه الحركة المفاجئة وبدا منى أكثر من علامة من علامات الامتعاض والألم ولكن أمى أسرعت الى تهدئتى وقالت وهى تضع يدها على كتفى

ـ لاتسىء فهمه ياشوقى ، انك لاتدرى كم يعذبه موقف سكرتيره الشائن منك ومن زوجتك ، ولا يغرنك ماتسمعه منه من كلمات النصح والتشجيع ، فانه لا يكاد ينفرد بنفسه حتى تفيض نفسه حزنا وكمدا على ما أصابكم جميعا ـ

ومن ذلك اليوم لم نعد الى الحديث عن حوادث نجع

حمادى قط ، وبعد شهر انتقلنا الى الاسكندرية وهناك وقفت أمى قلبها وعواطفها على اسعادى ، وفاضت على من حنانها وحبها ما كان خليقا أن يمحو ما بنفسى من الضيق ، ويطهر ما بقلبى من الهم ولكن هذا كله لم يجد معى شيئا فلم أتعز عن آلامى ولم أجد فى مقامى معها راحة ولا تسلية ولا عزاء ، ومن ثم قررت السفر الى لبنان فكتبت الى رسمية هانم أنبئها بهذه الرغبة فلما جاءنى ردها بالموافقة أعددت عدتى ورحلت الى لبنان ، وكان هذا فى صيف العام الماضى وقد وجدت فى ربوع لبنان الجميلة ماعزانى بعض العزاء عن همومى وأحزان نفسى فلما استنفدت أيام أجازتى وأخذت بحظى من الراحة والاستجمام عدت الى نجع حمادى ، وبعد ثلاثة أشهر من عودتى زفت فاتن الى أحد ضباط بوليس مديرية أسيوط ثم انتقلت للاقامة معه فى مقر عمله هناك ، ولا أخفى عليكم اننى شعرت عقب رحيلها بارتياح شديد وكان سبب ذلك عاملان ، أولهما أنها كانت الأثر الباقى الذى يشير دائما الى مأساتى ويذكرنى بها وثانيهما اننى كنت أشعر نحوها بكراهية شديدة ونفور لا حد له .

ومرت الأيام وأنا أحاول أن أسلو حورية وأمحو ذكراها وأرفع عن نفسى ما خلفه مصابى فيها من حزن وألم ،

ولكنى وجدت فى ذلك مشقة وعنه عجزا ، وتوالت الشهور والأيام وأنا حائر بين أحلام الليل وخواطر النهار ، تراودنى فكرة غريبة مؤداها أن حورية لا زالت حية وانها ستعود الى يوما من الأيام لتملأ حياتى فرحا وسعادة ، وقد يقهقه البعض ساخرا منى ومن ضعفى وبلاهتى ، ويعجب كيف يكون لى أن أعلل النفس بعودتها بعد انقضاء ما ينوف على عامين على اختفائها دون أن يظهر لها أثر يدل عليها ، وكيف يكون لى أن أشتهى عودتها بعد أن فاجأتها بدلائل خيانتها وجهتها بشواهد اثمها ووقفت بنفسى على مباذل حبها الشائن وخزيها الفاضح .

والواقع أننى لا أدرى بم أجيب وبم أفسر التناقض البادى فى موقفى بعد أن ذكرت من مفصل الأمر ومجمله ، على أنه يمكن تعليل ذلك بأحد سببين وهما اما أن تكون ارادتى قد أصيبت بصدع شديد لم تملك معه الا أن تنحنى أمام هذه اللطمات التى توالت على فى هذه الفترة المضنية من حياتى ، واما أن أكون قد نكبت بمرض نفسى بدل شخصيتى وطبعها بطابع الشذوذ والغرابة ، ولست أدرى أى هذين السببين هو الصحيح ولكن الشىء الذى أدريه هو أننى فى يقظتى ومنامى أحس دائما بنداء مجهول ينبعث من أعماق ايمانى ويردد هاتفا فى صدرى :—

« انها بريئة ... انها عائدة اليك ـ »

وقد يرى البعض فى ذلك عرضا من أعراض المرض أو مظهرا من مظاهر الضعف وخلل الأعصاب ، وقد يرى البعض الآخر أنه نتيجة من نتائج تفكيرى المتصل فى حورية ، وصدى لاشواقى الكامنة المؤججة اليها ورغباتى المكبوتة للاغتفار لها ، وقد يرى آخرون انه ليس مظهرا من مظاهر المرض والخلل ، ولا صدى لحبى الكامن وشوقى المضغوط ، وانما هو ظاهرة من ظواهر التحول الروحى حيث يشف القلب وتجلو الروح ويزول عن البصيرة الغطاء ، وفى الحق أن هذا كله صحيح ، ولو خيرت بين هذه التفسيرات لما فضلت واحدا منها على الآخر لأنها فى جملتها تصور حالتى النفسية اكمل تصوير وأصدقه ، فأنا منحل الجسم معتل الصحة محطم القلب مختل الأعصاب ما فى ذلك شك ، وأنا ضائع بين وساوسى وأحلامى ، موزع الحس بين خيالاتى وأطيافى ما فى ذلك ريب أيضاً ، وأنا أطوى على دفين حبى ووجدى جوانحى ، وأعانى من كوامن شوقى وحمم قلبى مايكفى لأن يجعلنى رمزا أبديا لكل حب ضائع يائس ، كل هذا أحسه وأحس معه بأننى عاجز عن أن أجد فى الحياة ما يشفينى من دائى ، وينقذنى من وهمى ، ويستل من بين جنبى دفين حبى ،

نعم ، اننى أعترف بأننى لازلت أهواها، وليس يعنينى فى شىء أن ينظر الناس الى نظرتهم إلى العبد الذليل أو الزوج الوفى النبيل ، فسواء عندى أمدحونى أم قدحوا فى ، لأن ذلك كله لن يغير من الحقيقة شيئا وما الحقيقة الا أننى لازلت أحب حورية أعمق الحب وأقواه ، وأننى سأظل طول حياتى أمينا على حبها وفيا لذكراها .

* * *

هذه هى قصة حياتى دونتها مدفوعا بالرغبة فى أن أرضى فضولكم من جهة وأسكن عقلى المضطرب ونفسى المعذبة من جهة أخرى وقد يتداخل بعض القراء العجب والشك فى هذه القصة اغرابتها وشذوذها ولكنى أبادر فأقول بأن كل الوقائع التى أودعتها هذه السطور إن هى الا حقائق لا أثر للخيال فيها اطلاقا ، وان صادف واستطاع أحد من القراء أن يمسك بطرف الخيط ويميط اللثام عن سر حورية فانى أناشده أن لا يضن على بمعلوماته ، وليعلم اننى على أتم استعداد للصفح عنها والاغتفار لها بالغا ما بلغت خطوره البواعث التى حملتها على الهرب والاختفاء .

شوقى أمين

عزبة الرفاعية ـ نجع حمادى

الفصل الخامس عشر

وكانت الساعة قد جاوزت الرابعة بعد الظهر حينما فرغت فائزة من تلاوة القصة ، وعندما أغلقت الدفتر ووضعته أمامها كانت امارات الدهشة والذهول تنتشر على وجوههم جميعا ، وأعقب ذلك فترة سكون قطعها عارف باشا بقوله

ـ حقا ، انها لقصة غاية فى الغرابة ، ولولا أن شوقى أقسم على صحة كل ما جاء فيها لما صدقت حرفا واحدا منها ـ

فقال جميل بك ـ أما أنا فيبدولى أن وراء هذه القصة سرا أكبر مما يبدو لأول وهلة والا لما هجرت حورية زوجها على هذا النحو رغم شديد حبها له ـ

فرفعت فائزة رأسها وقالت ـ وماذا كنت تنتظره منها بعد أن ارتكبت تلك الهفوة الكبرى فى حق زوجها المتزمت ـ

ففكر قليلا ثم قال ـ من الصعب ان أقطع بالأسباب التى حملتها على الاختفاء ان كانت لا تزال حية ، ولكنى أحس بأن الدافع لها على ذلك شىء آخر غير الجريمة التى نسبت اليها ـ

فسألته زوجته ـ هل تعتقد أنها لم تأت هذه الفعلة المنكرة .

فقال وهو يعبث بعصاه فى الرمال ـ يخيل إلى أن فتاة لها مثل هذه الصفات لا يمكن أن تقدم على فعلة كهذه بالسرعة والسهولة التى تمت بها ـ

فتطلع اليه عارف باشا وقال ـ اتظن ذلك حقا ؟ وما رأيك فى موقف يونس بك ؟ ـ

فأجابه ـ اننى استنتج أن هناك سرا يكمن وراء الاضطراب الذى بدا عليه فى أكثر من موطن فى حوادث القصة ـ

فقالت فائزة ـ اذن فأنت تعتقد أن له دخلا فى ابعاد حورية عن زوجها ـ

فأجابها ـ هذا ما أظنه ـ

فسألته ـ وما تظن السبب الذى حمله على ذلك ؟ ـ

فأجابها ـ لا أدرى ، على أننا قد نستطيع أن نمسك بطرف الخيط اذا فكرنا فى هذه النقطة جيدا ـ واستغرقوا جميعا فى أفكارهم بحيث لم يلحظوا بادىء ذى بدء عربة تقف أمام بوابة الحديقة فلما تناهى اليهم صوت ضوضائها التفتوا ناحيتها وعندئذ رأوا الأستاذ شفيق يهبط من العربة ويسرع مهرولا ناحيتهم والفرح ينشره ويطويه ، وعندما اقترب منهم صاح فى حبور

ـ يالله .. أأنتم هنا وقد قلبت الدنيا بحثا عنكم ـ

فنهضوا يحيونه وقال عارف باشا ـ ليس الذنب ذنبنا وانما ذنب هذه القصة الملعونة ـ

فقال شفيق وهو يلقى نظرة سريعة على الدفتر ـ آه ، قصة شوقى هل استطعتم أن تهتدوا إلى السر ـ

فقالت فائزة ـ كلا ، وأنّى لنا ذلك وقد عيت أنت بأمره ـ

فأجابها ضاحكا وهو يربت كتفها ـ أنا !! ومن قال لك إننى عجزت عن كشف معمياته ، وبهذه المناسبة لقد جئت ومعى لكم مفاجأة لا تطرأ على بال ـ

فقالت فائزة ـ خبرنا أولا هل وصلت المطربة ليلى ـ

فالتفت اليهم وأساريره تسطع بالحبور وقال ـ نعم ، لقد وصلت حورية منذ الظهر ـ

فانتفضوا جميعا وقالوا فى نفس واحد ـ حورية !! ـ

فقهقه ضاحكا ـ نعم ، حورية ، لا تعجبوا انهما أسمان لمسمى واحد ، فحورية هى ليلى وليلى هى حورية ـ

وهنا ارتفعت أصواتهم بملحة مستفسرة وكانت فائزة أشدهم شوقا وتلهفا فأخذت تمطره بوابل من اسئلتها دون أن تتلقى جوابا شافيا وأخيرا قال ـ اذا ذهبنا إلى الفندق ، فسأحدثك بكل شىء ، وإذا أردت فسأجعلها تعيد عليك القصة بنفسها ـ

فقالت وهى تتشبث بذراعه لترغمه على الجلوس ـ لن نسير معك خطوة قبل أن نعرف منك سر اختفائها ـ

فقال ـ انى أعدك أن أشبع رغبتك فى طريقنا الى الفندق ، فهلم بنا حتى لانبطىء عليها ـ

فاندفعوا جميعا نحو السيارة وبعد قليل كانت تنطلق بهم صوب الفنـــدق .

وبدأ الأستاذ شفيق يحكى لهم القصة قائلا :

« عندما وصلت ليلى أعنى حورية ظهر اليوم مع أمها واخواتها الثلاث ... ـ

وهنا قاطعته فائزة فى دهشة وتساؤل ـ ماهذا الذى تقول ، كيف يكون ذلك ولم يكن لحورية أم ولا أخوات ولا أخوة ـ

فضحك وقال ـ آه ، صحيح ، انى أعنى زوجة أبيها وبناتها الثلاث ، وهى امرأة تزوجها عقب فراره الى العراق ـ

فقال جميل بك ـ اذن فقد فر الشيخ مروان من السجن ـ

فأجابه ـ اجل ، منذ نحو عامين على وجه التقريب ـ

فبدت الدهشة على وجوه الجميع وهتف جميل بك يقول ـ اذن فلا بد وأن يكون لفراره علاقة باختفاء ابنته لأن موعد فراره يتفق تماما مع موعد هربها ـ

فابتسم الأستاذ شفيق ولبث يراقب دهشتهم وعجبهم فى سرور وعلى شفتيه ابتسامته الخاصة ثم قال ـ هذا هو الواقع بعينه ، فهذا الرجل الذى توفى بالعراق منذ عام والذى استطاع أن يوهم الجميع بأنه أحد أبناء هذا القطر وتمكن بذلك من أن يتزوج من أحدى نسائه ، هذا الرجل الذى لم يظهر قط على مسرح حوادث القصة لم يكن فى الواقع الا البطل المستتر الذى يقبض بين يديه على مفتاح السر ، والآن دعونى أسرد لكم الوقائع كما سمعتها من حورية واياكم أن تقاطعونى قبل أن أفرغ منها ـ

فقالت فائزة ـ اننى أعرف أننى المقصودة بهذا الكلام ولكن كن مطمئنا فلن أقاطعك الا اذا حاولت الاقتضاب ـ

فابتسم واعتدل فى جلسته وقال

ـ عندما وصلت حورية ظهر اليوم كانت تجهل جهلا تاما صلتى الجديدة بشوقى فلما عرضت عليها ملخصا لقصته (حطام قلب) لاستطلاع رأيها فى أمر استعاضتها بقصة « النجم الهاوى » اضطربت اضطرابا شديدا لم أدرك له علة ولكنى مازلت بها حتى اعترفت بالحقيقة وقصت على التفاصيل بحذافيرها ، وانكم لتذكرون جيدا أن الانقلاب الذى طرأ على حياتها والذى أوقع الشك والنفرة والشقاق بينها وبين شوقى كان على أثر زيارة

توفيق للعزبة وأسرافه فى تتبعها ومحاولته اغرائها ونصب الشباك لها ، فهل كان اضطراب حورية وقلقها وخوفها راجعا لوقوعها فى الاثم كما ظن شوقى وكما توهم الناس جميعا . كلا وانما كان مرده إلى ذلك السر الرهيب الذى كاشفها به توفيق عقب زيارته ليرغمها به على الاستسلام له والاذعان لمشيئته والاستجابة لرغباته الأثيمة منها ، فما هو هذا السر الذى كان يعرفه توفيق والذى قلب حياة هذه الأسرة وجلب على افرادها كل هذا الحزن والشقاء . انه يتلخص فى أن الشيخ مروان كان قبل ذهابه للخدمة فى مزارع رسمية هانم منذ سبعة عشر عاما يعمل خفيرا بعزبة يونس بك فى لمنيا ، وكان رجلا شديد البأس شديد الولاء لسيده ، وكان يونس بك فى ذلك الوقت يعيش فى القاهرة عيشة اباحية مستهترة ، وكان المعروف عنه أنه شديد التعلق بالنساء وخاصة الجميلات منهن ، وكان توفيق اداته التى كان يعول عليها فى الوصول إلى من لا يقوى على أغرائهن من الزوجات الحسان ، فلما وقعت أبصارهما على ثريا هانم والدة شوقى شغف بها يونس بك وهام بها حبا ومن ثم أوعز إلى توفيق باغوائها فأخذ يتصدى لها ليخلب لبها ويضل هواها ، ثم راح يلاحقها ويطاردها ولكنه لم يفز من وراء كل ذلك بطائل ، هنالك بدأ يونس بك مع سكرتيره

يفكران فى طريقة أخرى توصلها إلى تحقيق مأربهما ، وسرعان ماهداهما شيطانهما إلى خطة ما كادت تنبثق فى ذهنيهما حتى بادرا بتنفيذها ، وكانت الخطة فى أول الأمر ترمى الى توطيد صلتهما بأمين أفندى والد شوقى وأرضائه وذلك بترقيته والاغداق عليه فلما عجزا عن بلوغ مأربهما عن هـــذا السبيل وضعا خطة للخلاص منه وازاحته من الطريق ، ومن ثم عهدا اليه بمهمة مصلحية فى سمالوط حيث كان ينتظره الشيخ مروان ، وهناك استدرجه الأخير الى النهر وقضى عليه بصورة لم تحرك شبهة أو تثر مظنة ، وبذلك نجحت الخطة فلقى الموظف المسكين حتفه على أبشع صورة واستولى يونس بك على زوجته ، أما الشيخ مروان فقد كان جزاؤه على فعلته أن أرسله يونس بك مزودا بكتاب توصية منه إلى رسمية هانم لاستخدامه فى مزارعها الغنية .

ولقد ظلت هذه السيرة طى الكتمان الى أن زار يونس بك وتوفيق رسمية هانم فى مزرعتها لحضور حفلة زفاف فاتن ، وكان يمكن أن يظل كل شىء سرا مستترا لولا أن داهمها نبأ فرار الشيخ مروان ولجوئه الى ماكينة رى مهجورة على بعد بضعة أميال من العزبة ، واصراره على مقابلتها ومقابلة ابنته فى مخبئه . هنالك اضطربا اضطرابا شديدا ولم يجدا مناصا من الرضوخ

لمشيئته مخافة افتضاح سرهما ، فاستقلا عربة أوصلتهما إلى حدود المزرعة ثم صرفا السائق ومضيا الى المخبأ على الأقدام ، وعندما بلغا مكمنه قابلها الرجل على عتبة الباب وهو مدجج بالسلاح ثم أدخلها وأخذ يتجاذب معها أطراف الحديث الى أن طرق موضوع ابنته ، وهنا انتهزا الفرصة وسردا له قصة زواجها من نجل الرجل الذى صرعه فى سمالوط ، ثم انتهيا من ذلك الى النصح له بضرورة الرحيل ابقاء على سعادة ابنته وحرصا على هنائها الزوجى ، وبعد نقاش وجدال اقتنع الرجل بوجهة نظرهما ولكنه اشترط لذلك البقاء بضعة أيام كى يتمتع برؤية ابنته وزيارتها خلسة فقبلا شروطه وتطوع توفيق باحضار حورية الى المخبأ كلما سنحت لذلك فرصة ، وبعد أن تم الاتفاق بينهما وبينه على هذا النحو ودعاه وانصرفا وعادا الى العزبة فى الحالة المريبة التى مر ذكرها فى سياق القصة ، أما ما حدث بعد ذلك فأمره واضح تمام الوضوح ذلك أن توفيق أخذ يصطحب حورية سرا الى مكمن أبيها ويتسلل معها ليلا فى المزارع وفى خلال ذلك استطاع أن يبثها هواه ويفصح لها عن عواطفه ولكنها صدته ونهرته وأعرضت عنه ، هنالك لم ير بدا من البوح لها بالسر بغية التسلط عليها وامتلاكها فأفشى لها بالمآساة بعد أن حذف نصيبه

منها ، ومن العبث أن أصور مبلغ الذعر الذى انتابها من جراء هذا النبأ الخطير الذى لم يكن لها على بال ، وكانت فى أول الأمر تظن أنها خـــدعة سعى بها توفيق ليوقعها فى شراكه ولـكنها مالبثت أن تحققت من صحتها بعـد أن استدرجت أبيها وساقته الى الاعـتراف بجزء من نصيبه فى الجريمـة ، عندها اضطربت حياتها وفسدت أمورها ولم تجد وسيلة للنجاة من هذه المحنة الا بالمـداراة والصبر والـكتمان فى سبيل حبها لشوقى ، ثم طـالت هذه المصابرة وطالت معها مضايقات توفيق ومحاولاته حتى كان ذلك اليوم الذى لم تستطع فيه الصبر على عنته وارهاقه فقررت أن تضع لوقاحته حـدا وانتهزت لذلك فرصـة سفر شوقى الى المنيا فخرجت واتجهت سرا نحو مخبأ أبيها لتفاتحه بموقف توفيق منها ، ولم تـكن تعلم فى ذلك الوقت أن (توفيق) قد رآها وأخذ يتبعها عن كثب حتى اذا مابلغت باب المخبأ توارى وراء شجرة انتظارا لخروجها ، أما هى فقـد دخلت توا الى غرفة أبيها وبعد أن حيته حـدثته فورا بمتاعبها وباحت له بمواقف توفيق الوقحة منها ، هنالك ثارت ثورة الرجل فنهض والغضب ينهب نفسه ويرعد شفتيه وهو يقول :

ـ اذن فقـد تبعك اليوم الى هنا دون أن تشعرى ليرغمك على

العودة معه فى الظلام ـ

فقـالت فى دهشـة وحيرة وارتباك

ـ يا الهى ، أكان يتبعنى ؟ ـ

فقال وهـو يهم بالخـروج من باب الغرفة

ـ اجل ، لقد كنت أرقبه قبل دخولك ، والآن لك أن تطمئنى فلسوف أريحك نهائيا من وجهـه ، واذا أبطأت عليك فلك أن تبادرى بالعودة الى دارك ـ

فقالت ـ لقد سافر شوقى الى المنيا ولذلك يمـكنك أن تحضـر لقضاء هذه الليلة فى المنزل ـ

فقال ـ حسنا ، سأوافيك هناك بعد ساعتين ـ

وخرج الرجـل على اثر ذلك وفى عينيه حمرة الدماء ، ورأته حورية من النافذة يقترب من توفيق ويصافحه ثم يسايره بين المزارع ويختفى معه عن الانظار ، وبعد وقت اسرعت بالعودة الى دارها وهناك صرفت الخادمة وظلت ساعات نهبة للأفكار والخواطر حتى سمعت اشارة أبيها المتفق عليها فى الحديقة فأسرعت وفتحت له الباب الخلفى واستقبلته فى غرفة الانتظار ، وهناك أنبأها بالخبر المفاجىء .. خبر قضائه على توفيق فى النهر تماما كما فعل مع والد زوجها ، واستمر الحـديث بينهما ساعة

فوجئا بعدها بمداهمة شوقى المباغتة على الصورة التى وردت فى القصة فما كان من الرجل الا أن انسل خارجا من الدار ثم كمن وراء شجرة وانتظر ريثما انتهت المعركة الدامية بين الزوجين وحالما خرج شوقى فى طلب توفيق كما ذكر برز الشيخ من مكمنه واقتحم الدار ثم حمل ابنته الفاقدة الرشد ومضى بها الى المخبأ حيث أكب على العناية بها حتى أفاقت ، وفى منتصف الليل تسللا معا وغادرا القرية وبعد أيام عبرا الحدود ثم أوغلا فيها حتى استقرا فى العراق ، وهناك تزوج الرجل من أرملة عراقية مثرية أمدته بمالها للاشتغال بالتجارة ولكنه ما كاد يمضى فى ذلك قليلا حتى لحق به الافلاس والبوار فراح يتعثر ويتخبط الى أن أصيب بداء أودى بحياته » .

وهنا سكت الأستاذ شفيق لحظة ثم استطرد ـ هذا كل ما هنالك . والآن لايبقى سوى أن تعدوا أنفسكم للقاء بطلتنا الغامضة وحوريتنا الفاتنة المحبوبة .

وكان الجميع يصغون اليه فى دهشة وذهول فلما فرغ من كلامه أفاقوا جميعا من ذهولهم واستغراقهم وأخذوا يثرثرون ويضربون كفا بكف من غرابة ما سمعوا ، وبعد لحظات لاح لهم الفندق عن كثب فتطلعوا اليه وهم يتحرقون

شوقا إلى رؤيه بطلة هذه القصة العجيبة الفذة .

ولم تكد العربة تقف أمام باب الفندق حتى هرع لاستقبال الأستاذ شفيق كل من صاحب الفندق ومديره ، فلما هبط هو ومن معه تقدم الرجلان وبادراه بالتحيه فتقدم ناحيتهما وقال :

ـ آه ، لا بد وأنكما تريدان التحدث معى بشأن ترتيبات حفلة الليلة ، أليس الأمر كذلك ؟ ـ

فقال المدير مبتسما فى أدب جم وسرور عظيم

ـ هو ذاك يا أستاذ ، وانك لتعلم أنها شغلنا الشاغل ـ

فقال الأستاذ شفيق ووجهه يسطع بالسرور

ـ حسنا ، وهل كل شىء على ما يرام ؟

فأجابه ـ على أتم ما يرام يا أستاذ ، هل تسمح بالمجيء لتلقى نظرة على حوض السباحة ـ

فقال ـ هذا ما سأفعله بعد ساعة أما الآن فإنى أود مقابلة الآنسة ليلى مع أصدقائى ، هل ما زالت ملازمة غرفتها ـ

ـ كلا ياسيدى ، لقد بارحتها مع أفراد الأسرة منذ دقائق ، ومن المحتمل أن تكون الآن فى غرفة الاستقبال الخاصة ـ

ـ اذن أرجو ابلاغها انى قادم اليها مع أصدقائى ـ

وعندما انصرف الرجلان راح الجميع يرمقون الردهة المؤدية إلى غرفة الاستقبال فى لهفة وفضول ، وبعد وقت حضر أحد موظفى الفندق وقادهم إلى الغرفة وما كادوا يظهرون على عتبة الباب حتى خفت الفتاة ومن معها لاستقبالهم والترحيب بهم ، كانت فتاة تناهز الثانية والعشرين من عمرها تتألق فيها كل أضواء الحسن والنضرة والسحر الشرقى والعيون الوادعة ، ولم يكن معها عندما ولج القادمون الغرفة سوى زوجة أبيها وبناتها الثلاث اللاتى جاء ذكرهن آنفا ، وبعد أن تبادل الجميع عبارات المجاملة بدأ الأستاذ شفيق يقدم أصدقاءه اليها واحدا واحدا وهى تحييهم برقة وابتسامة عذبة ، وعندما جاء دور عارف باشا أمسك بيدها فى عطف وقال

— كم نحن سعداء بلقائك ياحورية ، انها لمعجزة أن يتم لنا ذلك فى اليوم الذى فرغنا فيه من قراءة قصة حياتك العجيبة ، ما أغرب أحداث الحياة يا بنيتى ـ

فقالت فى صوت عذب وهى ترفع عينيها إلى السماء

— حقا ، لقد عاملتنى الأقدار بقسوة ، ولكن شكرا لله على هذه النهاية ـ

وهنا تقدمت فائزة وقالت وهى تشد على يدها وتتطلع الى

وجهها فى اعجاب وسرور

ـ لست أدرى كيف اهنئك يا حورية ، لقد كنت أتصورك فتاة جميلة ولكنى لم أكن أعتقد أنك على هذه الصورة الفائقة ؟ ـ

فابتسمت وابتسم الجميع واستطردت فائزة تقول وهى تأخذ مكانها بجوارها .

ـ أنت جديرة بشاب عظيم مثل شوقى وما أرى الا أنكما قد خلقتما بعضكما لبعض ـ

فترقرقت الدموع فى عينى حورية وصمتت لحظة وعندئذ استأنفت فائزة حديثها قائلة

ـ ما يبكيك ياعزيزتى ؟

فأجابتها ـ لا أدرى تماما ، وانما أنا فرحة بعودتى اليه ـ

فقال جميل بك وهو ينظر اليها فى تأثر واعجاب

ـ طبعا ، ولا شك أن هذا سيكون شعوره عندما يتلقى النبأ ، وبهذه المناسبة هل تلا عليك الأستاذ شفيق كلمات زوجك الحارة التى اختتم بها القصة ـ

فقال الاستاذ شفيق وهو ينقل نظره بينهما

ـ لقد اخبرتها بأهم محتوياتها ـ

فقال جميل بك وهو يشير الى الدفتر بين يدى فائزة

ـ إنى أفضل أن تقرأها بنفسها لتقف على مقدار اخلاصه وحبه لهـا ـ

وهنا ناولتها فائزة الدفتر وهى تقول فى جذل

ـ لقد قدم لنا الأستاذ شوقى هذا الدفتر هدية لنا قبل رحيله فاسمحى لى أن أقدمه بدورى هدية لك ـ

فأخذت منها الدفتر فى شوق ولهفة وبعد أن تطلعت الى بعض صفحاته وضعته فى حجرها وهى تفيض عليه حنانا واعزازا .

وانتقلوا بعد وقت الى قاعة الطعام وأخذوا يتجاذبون أثناء ذلك أطراف الحديث فى موضوعات شتى ، فلما جاء ذكر حادث الهرب قال عارف باشا موجها الحديث إلى حورية

ـ يجب أن أصارحك ياحورية أنك أخطأت أكبر الخطأ فى كتمان الأمر عن شوقى ، وفى رأيى أنك لو كاشفته بالحقيقة من بادىء الأمر لما حدث ما حدث ـ

فقال جميل بك مؤمنا على كلامه فى حرارة

ـ هذا حق ، وانت اذا أردت أن تتقصى أسباب فساد الحياة الزوجية فى الأسرة الشرقية لوجدت أن خوف الزوجة وحرصها على كتمان أمورها عن زوجها يتبوءان مركز الصدارة بين أسباب هذا الفساد ـ

فقالت حورية فى أسف وحيرة

ـ هذا صحيح ، ولكن سر مصرع أبيه كان صدمة عنيفة لى سيما وقد كنت أعلم حق العلم مبلغ حبه له وتعلقه بذكراه ودوام تفكيره فى مصيره ، فلا عجب وهذه الظروف كما ترون اذا تنكبت الطريق الذى يمليه العقل والحكمة ، وسلكت مسلكا خلوا من الاتزان والرشاد ـ

وهنا قالت فائزة ـ لاسبيل الى الانكار بأن حورية كانت فى مأزق من شر المآزق ، وأنا أقرر صراحة اننى لو كنت مكانها لما فعلت غير ما أقدمت عليه ـ

وابتسمت وهى تقول هذا الكلام ثم أردفت قائلة

ـ وما دام الأمر كذلك فلا لزوم لمتابعة الخوض فى هذا الموضوع ودعونا نفكر فى مسرات الليلة ومباهجها ـ

فقال الأستاذ شفيق وهو يفرك يديه فى سرور

ـ اننى لم أنس هذه المسألة ، ويسرنى أن أعلنكم بأن الحفلة التى ستحييها حورية الليلة ستكون مفاجأة لكم جميعا .

* * *

وعندما اقترب موعد الحفلة اشتدت فى الفندق الحركة

وزاد فيه النشاط ، وكان حوض السباحة ملىء بالماء وقد سلطت عليه الاضواء فبدا فيه كالفضة المذابة ، وحول الحوض كانت الأضواء تسطع على موائد احاطت بالحوض فى شكل هندسى جميل ، وكانت هناك جزيرة من الورود والأزهار أعدت فى وسط الحوض لأفراد فرقة الموسيقى ، وكانت نافورات الماء تحت الأشجار والأضواء الملونة من الأغصان تؤلف مشهدا فاتنا يسر العين ويأسر النفس ، وكان المكان على سعته غاصا بجمهور حاشد من مختلف الجنسيات الشرقية ، وكان برنامج الحفلة ينقسم قسمين ، قسم للمنولوجات اللبنانية والمصرية وقسم للغناء ، وكانت ليلى (حورية) هى كوكب الحفلة فما أن ظهرت على المسرح بطلعتها الوضيئة حتى ضج المكان بالهتاف والتهبت الأكف بالتصفيق ، وكانت ترتدى ثوبا بسيطا داكن اللون ولكنها بدت فيه تحفة أنيقة متألقة تستهوى القلوب وتجتذب الأنظار ، فلما خفتت الأصوات وساد السكون انطلق صوتها يشدو فى عذوبة ورخامة وحنان ثم أخذ يعلو قليلا قليلا ويرتفع شيئا فشيئا الى أن بلغ درجة خيل معها للسامعين أنه يملأ المكان كله بأرضه وسمائه، كانت أغنيتها حارة ملتهبة كلها جمرات من آهات الشوق والجوى، وكان الحاضرون ينصتون اليها مرهفى الحس معلق الأنفاس

يكادون من فرط الطرب يترنحون ثملا ويتمايلون اعجابا وسرورا ، وطفقت حورية تشدو بصوتها الملائكى والجمهور يستزيدها ويستعيدها الى ساعة متأخرة من الليل ، وما أن انتهت الحفلة حتى كان اسم « ليلى » يدور على كل لسان .

وفى صباح اليوم التالى كتب الأستاذ شفيق رسالة مستفيضة دوّن فيها تفاصيل القصة كما سمعها من حورية وبعد أن عرضها عليها أرسلها بالبريد الجوى الى شوقى بعنوانه فى مصر .

الفصل السادس عشر

ووجدت تلك الرسالة الخطيرة طريقها الى دار يونس بك فى صباح يومَ انتعشت فيه الآمال بزوال الخطر عن صحته وقرب تماثله للشفاء من المرض الذى ألم به ، وكان شوقى وقت وصول الرسالة يتناول طعام الفطور مع والدته فى غرفة ملاصقة لغرفة المريض ، فلما دخل الخادم وناوله الرسالة أخذ يستعرضها بين أصابعه ثم قال لأمه :

ـ أغلب الظن أنها من الأستاذ شفيق الذى حدثتك عنه ـ

فقالت ـ هذا ما دار بخلدى حينما رأيت طابع البريد على الغلاف ـ

فقال ـ انى انتظر بفارغ صبر أخبار الأستاذ شفيق وصحبته السعيدة ، ترى ما وراءه ؟ ـ

فقالت ـ لعله ينوى العودة قريبا ـ

فقال ـ هذا يتوقف على وصول مطربته التى سبق أن حدثتك عنها ـ

واذ ذاك ارتفع صوت يونس بك من الغرفة المجاورة فى طلب

زوجته فنهضت ثريا تلبي رغبته وكان شوقي في ذلك الوقت قد فض الرسالة وبدأ في تلاوة محتوياتها ، وما كاد يقرأ بعض فقراتها حتى قفز من مكانه وهو يضغط على فمه بكفه كأنه يمنع صيحة هول ودهشة تكاد أن تنفجر في صدره ثم أسرع إلى غرفته في ارتياع وبادر الى اغلاق الباب القائم بينها وبين الردهة المؤدية الى غرفة الطعام ، ولما اطمأن الى عدم وجود من يراقبه انحنى على الرسالة وراح يتلوها وهو ينتفض حتى اذا ما أتى عليها وقف في شبه غيبوبة طويلة وغرق في ذهول عميق لم يتنبه لنفسه منه الا حينما سمع وقع اقدام أمه وهي تغادر غرفة المريض الى غرفتها الخاصة ، هنالك وقف فزعا مرتاعا وظل كذلك واجما ذاهلا الى أن عاودته القدرة على التفكير ولم يطل مقامه بعد ذلك في غرفته فما هي الا أن انحسرت عنه صدمة المفاجأة حتى استدار وغادر غرفته وتوجه رأسا الى غرفة المريض ، واذ مر بالردهة ألفى أمه في غرفتها منهمكة في اعداد بعض الأدوات الطبية مع أحد الخدم فمضى في سكون الى غرفة الرجل ثم دخل وأغلق الباب خلفه بعد أن أحكم رتاجه ودس مفتاحه في جيبه ، وكان وجهه عندما توسط الحجرة مربدا مروعا لفرط ما شاع فيه من آيات القسوة البالغه والغضب الجائح والألم اللاذع ،

وكان يونس بك فى ذلك الوقت ممددا فى فراشه تعلو وجهه علامات الهزال والشحوب الشديد ، وتشرد من عينيه الغائرتين نظرات قلقه زائغة خابية البريق فلما وقع بصره على شوقى وهو يتقدم ناحيته التفت اليه وقال بصوت راعش يفيض مودة وحنوا .

— تعال ياشوقى فانى بحاجة الى ... —

وسكت بغتة حين وقع بصره على سيمائه المنقلبة وسحنته التى تنضح بالشر وتنفث الحقد والكراهية ، وبعد لحظة فتح فمه واستطرد قائلا

— ما خطبك يا شوقى ، أراك شديد الانزعاج فهل حدث شىء؟ — فدنا الآخر منه ورمقه بنظرة هائلة ثم قال فى صوت حافل بالحقد — أجل لقد حدث شىء فظيع للغاية ؟ —

فنظر اليه الرجل فى توجس وقال وهو يتأمل سحنته فى دهشة

— يالله ، انك شديد الانفعال ، ترى ماذا حدث ؟ —

فقال الشاب فى صوت رهيب حافل بالوعيد

— لقد عثرت أخيرا على القاتل ... قاتل أبى —

فاجفل الرجل وظل لحظة يحدق فى وجه الشاب ثم قال

— القاتل !! ما هذا الذى تقول يا شوقى ؟ منذا الذى زعم هذا

الزعم وأنت تعلم حق العلم أنه مات ميتة ربه ـ

فقال الآخـــر فى غضب وانفعال ظاهر

ـ لاتحاول خداعى ، أنك تدرك تمام الادراك ما تحت كلمتى ـ

فاصفر وجه الرجل حتى حاكى وجوه الموتى ولـكنه عاد فتمالك نفسه وقال وهو يتصنع الجهل

ـ اننى لا أفهمك يا شوقى... ماذا تريد بقولك هذا ؟ ـ

فنظر اليه الشاب نظرة صاعقة وقال وهو يعض على نواجذه

ـ أريد أن أقول انك أنت قاتل أبى ـ

فأجفل الرجل واصفر وجهه اصفرارا شديدا ولـكنه جهد حتى تمالك قواه المزعزعة ثم قال :

ـ يالهى ، ماذا تقول يا شوقى ، كيف تجرؤ على اتهـامى بتلك الفـرية الشنيعة ، ترى منـذا الذى بث فى نفسك البريئه هـذا الاعتقاد الآثم ـ

فصاح فيه مزمجرا وهو يهتز من شدة الانفعال

ـ صه ، انك تخدعنى ولـكنك لن تستطيع خداعى هذه المرة بعد أن كشفت هـذه الرسالة حقيقة أمرك ، فخذها واقرأها ثم كذبها اذا استطعت ـ

قال ذلك ثم مد اليه يده بالخطاب فتناوله الرجل من يده وهـو

يرتجف ثم نشره بين يديه وأخذ يتلوه وسط سكون رهيب وما أن أتمه حتى تخاذلت قواه وتضعضعت ارادته وانخذل تصميمه ثم راح فى شبه غيبوبة وهو يقبض على أغطيته بأصابع متشنجة ، وأخيرا أفاق من ذهوله وغمغم يقول بصوت المذنب الذى يواجه بجريمته ولا يجد مفرا من الاعتراف .

ـ شوقى ، لا مناص من الاعتراف بذنبي . ان كل ما ورد فى هذه الرسالة صحيح . ولكن من الصحيح أيضاً أنى ندمت على فعلتى غاية الندم وتعذبت من جراء التفكير فيها أشد العذاب ، فهل لك أن تصفح عنى ؟ ـ

فأجابه فى حدة وغضب جنونى

ـ انك تطلب محالا ، ان جريمتك البشعة أكبر من أن تغتفر ، فليس أشد اجراما من رجل مثلك يرتضى ضميره أن يسلب مرءوسا ضعيفا زوجته ، ويطأ بقدميه سعادته ، ويسفك بيديه الآثمة دمه فى سبيل مآربه وشهواته ، ان فعلتك الأثيمة تستوجب أشد أنواع العقاب فاذا لم يعرف القانون كيف يقتص منك فسأتولى بنفسى عقابك ـ

فاختلجت أهداب الرجل وقال فى صوت مضطرب

ـ وهل تقوى على فعل ذلك يا شوقى ؟ ـ

فأجابه ـ انى أقوى على ما هو أكبر من ذلك وأعظم بعد أن عرفت من أنت ـ

فأرسل الرجل بصرا زائغا وقال

ـ ماذا ، هل أفهم من ذلك أنك تنوى قتلى ؟ ـ

فأجابه فى لهجة قاسية وهو يصوب اليه نظرة صارمة

ـ هذا ما انتوى فعله اذا لم أنجح فى قتلك قتلا أدبيا ـ

فقال الرجل فى انزعاج وخوف واستعطاف

ـ كلا ... كلا ، انك لن تفعل ذلك يا شوقى ، انك لن تشهر بى وتقضى على سمعتى وشرفى ، قل انك لن تفعل ذلك ان لم يكن من أجلى فمن أجل أمك ـ

فارتجف الشاب ووقف يحملق فى وجهه برهة ثم قال

ـ ماذا تعنى ؟ هل تقصد أن لها ضلعا فى المؤامرة ؟ ـ

فالتمعت عينا الرجل ثم قال وهو يهز رأسه

ـ كلا ، أقسم لك ، أقسم لك أنها لا تدرى عن ذلك شيئا ـ

فقال الشاب ـ دعك من القسم وصارحنى بالحقيقة ، صارحنى بكل شىء كيما أكون على بينة من أمرها وأمرك ـ

فأجابه ـ أقسم لك ان ما أقوله هو عين الصدق ، لقد أحببتها منذ رأيتها معك أنت ووالدك خلسة أثناء تنزهكم فى حديقة

الاندلس حبا ملك نفسى واستأثر بعواطفى وأهوائى ، ولكنى اعترف صادقا أننى لم اظفر منها بشىء ولم أفلح فى أغوائها رغم الجهود التى بذلها توفيق فى هذا السبيل والتى كان أبرزها انتهاز فرصة تلك الحفلة الساهرة التى أقمتها لمساعدة جمعية الفتيات الضريرات لاخراجها من حصنها الذى كانت تعتصم به ، ولا أذكر المحاولات التى حاولها توفيق أبان مرض أبيك ولكن الشىء الذى أذكره أنه ما من مرة عاد فيها من داركم الا كان الفشل حليفه ، وانت تعرف الحب اذا اضطرمت ناره فى قلب رجل أعزب مشتعل العاطفة مثلى كيف يلتهم كل شىء وكيف يستعصى على كل حكمة وروية وتفكير ، فما أن وسوس لى توفيق بخطة الخلاص من أبيك حتى بادرت بتنفيذها دون تحكيم للعقل أو اصغاء لصوت الضمير ، ولن أستطيع ياشوقى أن أصور لك مبلغ العذاب الطويل الثقيل الذى احتملته من جراء هذه الفعلة المنكرة ، ومدى الجهد المهلك العنيف الذى بذلته فى ذود ذكرياتها ، ومدافعة صورها المزعجة التى كانت لاتفتأ تثير الألم والأسى والندم أمام عينى ، اننى لن أستطيع ياشوقى أن أصور لك كل مالقيته من عذاب نفسى ، فصور أنت بذهنك القصصى ما تستطيع أن تصوره من الصور لهذه المحنة لعل ذلك يؤدى

الى عطفك على والرفق بالرجل الذى رعاك وربّاك ـ

فصمت الشاب لحظة ثم قال

ـ هيهات ، لقد أقسمت على الانتقام لأبى من قاتله ، وليس غرضى من قسمى أن أنزل نقمتى بالرجل الذى كفلنى ورعانى ، أو زوج أمى الذى أكرمها وأسعدها وآواها ، ولكن بالرجل الذى فتك بأبى فى سبيل شهوته ، افهم هذا جيدا ، واعلم أنه لن يهدأ لى بال أو يستقر لى خاطر حتى آخذ بثأر أبى وأشفى غليلى من قاتله ـ

فتخاذل الرجل وقال وهو يلهث فى توسل وضراعة

ـ رحمة بى يا شوقى ... انى أسألك بحق رعايتى لك أن ترفق بى وتدعنى أعيش ، ومن يدرى لعل اطالة أجلى شر على نفسى من كل عقاب تنزله بها ـ

فأجابه ـ اننى لا أفهم معنى لهذا الرفق ، انما الذى أفهمه أن رجلا مثلك لا يحق له أن يطلب المغفرة ـ

فبسط الرجل ذراعه فى يأس وقال فى ضراعة

ـ اتوسل اليك أن تصفح عنى ، دعنى أعيش ياشوقى من أجل أمك ـ

فأجابه فى حنق ـ وهل تركت أبى يعيش من أجلها أومن أجلى ،

فكر فى الأمر مليا ، فكر فى أنك حرمتنى أبى وفرقت بينى وبين زوجى وقد كانا مصدر سعادتى والقيمة الحقيقية لحياتى . فكر فى هذا كله وفكر فى قيمة الحياه التى ستحياها بيننا بعد افتضاح أمرك وظهورك على حقيقتك ـ

وكانت كل كلمة من هذه الكلمات بمثابة طعنة فى قلب الرجل فتململ فى فراشه ثم قال فى صوت يشبه الأنين

ـ آه ، انك على حق يا شوقى ، اننى لا استحق حقا أن أعيش ، فانزل بى من النقمة ما تشاء وفقط أتوسل اليك أن تبقى على سمعتى وشرفى ـ

فقال الشاب ـ أهذا كل ما تريده ؟ ـ

فأجابه بصوت متحشرج ـ أجل ـ

فقال الشاب ـ حسنا . اننى أعدك الا أمس سمعتك بسوء اللهم الا اذا اقتضت مصلحة حورية ذلك ـ

فأجابه ـ هذا حق لا أعترض عليه ، والآن تستطيع يا شوقى أن تفعل بى ما تشاء ـ

فارتجف الشاب وأطرق مفكرا وصدره يعلو ويهبط كأن زوبعة هائلة تعصف برأسه وبقى كذلك لحظة الى أن أخرجه الرجل من صمته بقوله

ـ شوقى ، لم التردد ؟ أظهر مافى قلبك ولا تكتم ثورة نقمتك ، فانك ان فعلت خففت عنى ما أحمل من آلام وخلصتنى من أثقال الفضيحه والعار ، اننى أعرف أنك أنبل وأعظم من كل شاب ولكن دعنى أحرضك على قتلى فلست والله أريد أن أحيا تلك الحياة الشقية بين قوم طيبين مثلكم ، اقتلنى وأنت مطمئن النفس لأنك تريحنى من شقائى ـ

فرفع الشاب رأسه وقال فى صوت يشوبه الاضطراب

ـ انك تعلم ما يمنعنى من سفك دمك ، حقا اننى لا أتمنى شيئاً كما أتمنى السوء لك ولكنى مع ذلك لا أجد من نفسى قدرة على الانتقام منك والقضاء عليك بيدى ، ولو فعلت ذلك لما لا منى عليه أحد ، ولكنى لست أرضى لنفسى أن أقتل بيدى الرجل الذى أكرمنى سبعة عشر عاما وكان منى فى مقام الأب ، اننى لا أقدر على ذلك ولكنى أقدر على شىء واحد وهو أن أتركك لضميرك وأرحل عن هذه البلاد الى أن يقضى الله بقضائه بيننا ـ

فقال الرجل فى صوت حافل بالتأثر

ـ لاحاجة بك الى الرحيل ياشوقى ، اننى أعرف السبيل الوحيدة لرد السعادة اليكم جميعا ، فهل لك أن تمهلنى قليلا حتى أحزم أمرى ـ

فتأمله الشاب لحظة ثم سأله

ـ لست أدرى ماذا تعنى ؟ ـ

فأجابه ـ ان ما أعنيه هو اننى قد اهتديت الى حل يرضيكم جميعا ـ

فسأله ـ ماهو ؟ ـ

فأجابه ـ تريث بى حتى أمعن النظر فيه ـ

ـ الا تحدثنى به ؟

ـ سأحدثك به فى الوقت المناسب أما الآن فدعنى أسألك شيئا ـ

ـ سل ماتريد فانى مصغ اليك ـ

فسكت الرجل لحظة ثم قال فى هدوء عجيب

ـ اذا وجدت فى هذا الحل مايرضيك فهل تصفح عنى ؟ ـ

ـ أجل ، وسأحاول أن أحمل الجميع على الاغتفار لك ـ

ـ يكفينى هذا .... والآن وداعا ياشوقى ـ

وكانت كلمة الوداع على أذن الشاب عميقة الأثر لغرابتها فوقف لحظة يتأمل سحنة الرجل ثم أولاه ظهره وانصرف الى غرفته وبعد أن قضى بها دقائق خرج مرتديا ملابسه وغادر الدار ويمم شطر المطار حيث حجز له مكانا فى احدى الطائرات المسافرة الى لبنان .

وقبيل الظهر عاد الى الدار مرة ثانية وما كاد يقترب من الباب حتى طالعته ضجة وصياح وعويل فتوقف لحظة ثم مضى

إلى الداخل وحالما وقع بصر أمه عليه أسرعت اليه وهى تصيح فى ذعر مستنجدة ، فخف اليها وقال ـ ماذا حدث ؟ ـ

فهتفت ـ يونس ... يونس .... لقد انتحر ـ

فسألها ـ انتحر ! وكيف حدث ذلك ؟ ـ

فأجابته والدموع تنهمر من عينيها فى غزارة

ـ لقد غافلنا وابتلع حبوب العلاج كلها دفعة واحدة ـ

فلاحت الدهشة على وجهه وقال مستفسرا

ـ وهل ترك وراءه ما ينم عن سبب انتحاره ؟ ـ

فأجابته ـ نعم ، لقد ترك قصاصة عزا فيها انتحاره الى يأسه من الشفاء ـ

وعندما دلفا الى حجرة الميت دنا شوقى من الفراش وأزاح الغطاء عن وجهه ثم ألقى نظرة طويلة على سحنته البشعة المتقلصة وظل يتأمل معالمه الى أن اقتربت أمه وقالت فى اشفاق وجزع .

ـ ما أفظعها من ميتة ياشوقى ، يخيل الى أنه تعذب كثيرا قبل موته ـ

فغمغم يقول وهو يسحب الغطاء على وجهه

ـ أجل ، لقد تعذب بما فيه الكفاية ـ وغاب عن أمه مغزى

عبارته لخفوتها وبعد لحظة خرجت معه وهى تترنح وتدفن وجهها بين راحتيها .

وقصدا على اثر ذلك الى غرفة الانتظار وأخذا يتباحثان فى أمر الجنازة فقررا استدعاء رسمية هانم وبعض اقاربه ولما فرغا من عمل الترتيبات اللازمة استقبلا بعض رجال الشرطه والنيابة الذين وفدوا للتحقيق والتحرى وقضى هؤلاء دقائق ثم انصرفوا بعد أن أذنوا لأهل الميت بدفنه .

وكانت ساعة تشييع الجنازة ساعة واجمة ثقيلة كئيبة على قلب شوقى وكذلك كانت الساعات التى قضاها فى المأتم يتقبل تعازى المعزين ومواساة المواسين ، وكان اجتماعه برسمية هانم وأمه بعد انتهاء المأتم كله حيرة وكله تردد بين الحاجة الى الافضاء اليها بالسر الرهيب فورا لاعلان براءة حورية وتمهيد الطريق لعودتها ، وبين الرغبة فى الوفاء للرجل وصيانة سره بعد وفاته ، ووجد الشاب فى هذا النضال المرير عنتا شديدا تفرقت له نفسه وشردت من أجله خواطره ، ولكنه رأى نفسه آخر الأمر أمام موقف لايستطيع أن يخلص منه الا بالتحلل من عهده للرجل معتذرا فى ذلك عن نفسه بضرورة العمل على اظهار براءة حورية ومحو ما لحق بها من ذل وعار ولكن على

نحو لايمس سمعة الرجل بين معارفه وأصدقائه ممن لايعنيهم شأن زوجته . ووجد شوقى فى هذا الحل راحة ملأت قلبه نشوة وأفعمت نفسه سرورا ، ولكنه مع ذلك وجد من نفسه عجزا عن مصارحة المرأتين بجلية الأمر فى هذه الليلة فانصرف الى مخدعه دون أن يبوح لهما بشىء مؤثرا مفاتحتهما بذلك فى مناسبة أخرى فى الصباح .

وما كاد شوقى يخلو الى خواطره وأفكاره فى غرفته حتى تولى قلبه خدر شهى طويل ، وضاءت جنبات نفسه بسرور لا حد له ، واذا الاسارير المنقبضة تنبسط وتستقيم وكأنما مستها يد ساحر ، واذا هذا الوجه الكالح العابس يستعيد نضرته وصفاءه ، واذا ظلام نفسه ينقلب نورا ، واذا يأسه يستحيل أملا ، واذا كل شىء أمامه يتحول جمالا رفيعا وأضواء مشرقة متألقة ، واذا هو يستحيل من جديد ذلك الشاب الرضى الخلق ، السعيد النفس الذى عرفناه يوم كان زوجا هانئا يعيش مع زوجته الحبيبة فى جنات الحب الموردة ، ويحلق بروحه معها الى ذرى السماء .

وعندما نهض من نومه فى الصباح كان أول شىء فعله أن أمسك بقلمه وكتب البرقية التالية الى حورية فى لبنان : ـ

« انني لا أكاد أصدق . انني فى فرح شديد لا يمكننى وصفه أو التعبير عنه ، يكفى أن أقول لك اننى أكاد من فرط السرور أذهل عن صوابى ، ان قلبي لايطيق صبرا فانتظرى حضورى بين ساعة وأخرى »

شوقى

وبعد أن فرغ من كتابتها دعا أحد الخدم وناوله اياها وطلب منه ارسالها من أقرب مكتب للتلغراف وحالما انصرف الخادم بادر الى التليفون واتصل بالمطار وبعد أن قضى وقتا فى عمل الترتيبات اللازمة لسفره ارتدى ملابسه وهبط الى غرفة المائدة لتناول فطوره ، وكانت والدته ورسمية هانم تنتظرانه هناك فلما رآهما خف اليهما وحياهما ثم أخذ مكانه بينهما حول المائدة وراح يتناول طعامه وهو يصغى الى أحاديثهما عن تعليقات الصحف عن الحادث ووقعه الأليم فى نفوس أصدقاء الفقيد ومرءوسيه ، وكان شوقى يعانى أثناء ذلك أزمة حادة من جراء التفكير فيما هو مقبل عليه ، ولكن تفكيره فى هذا الأمر لم يطل كثيرا فما أن فرغوا من طعامهم حتى بادر وأظهر لهما رغبته فى الاختلاء بهما للتحدث معهما فى أمر خطير يشغل باله ، فنهضتا على الفور وسارتا معه الى غرفة الاستقبال ، فلما استقر بهم

المكان استهل كلامه بقوله

ـ اننى أريد أن أكشف لكما عن سر خطير يتعلق بيونس بك وبكل فرد منا جميعا ـ

فبدت الحيرة والارتباك على وجهها وقالت أمه وهى تنظر اليه فى قلق وريب واضطراب

ـ سر !! وهل فى الأمر شيء لم نعرفه بعد ؟ ـ

فقال ـ نعم يا أماه ، انها ناحية مغلقة مجهولة مما كان يجرى وراء الستار وهى مسألة ترجع فى تاريخها الى ماقبل مصرع أبى ـ

فندت عن أمه صرخة هى مزيج من الرعب والدهشة وقالت

ـ ماذا تقول ؟ هل لأبيك علاقة بالموضوع ؟ ـ

فهز رأسه علامة الموافقة وقال بصوت عميق

ـ نعم .. وعلاقته بالمأساة خطيرة للغاية ـ

فانتفضت أمه وقالت مأخوذة وهى تدق على صدرها

ـ مأساة ! أية مأساة تعنى ؟ ـ

فأجابها ـ هذا ماسأرويه الآن ـ

وهنا قالت رسمية هانم وهى تصوب اليه نظرة فاحصة

ـ خبرنى أولا هل أنت واثق من صحة ماسترويه ؟ ـ

فأجابها ـ كل الثقة يارسمية هانم ـ

وبعد لحظة سكون رهيبة أخذ شوقى فى سرد القصة من بدء تدبير المؤامرة التى انتهت بمصرع أبيه الى نهاية الموقف الذى أفضى الى انتحار يونس بك ، وكانت المرأتان تصغيان اليه اثناء سرده لتفاصيل القصة وهما تنتفضان من شدة الفزع والدهشة والانزعاج ولمابات قريبا من نهاية القصة تطلع فجأة الى أمه وصاح

ـ أماه ... أماه ، ماذا بك ؟ ـ

وفى اللحظة التالية قفز مهرولا وتلقاها بين ذراعيه قبل أن ترتطم بالأرض فاقدة الوعى ، ونهضت رسمية هانم على الاثر وهى ترتعد ثم عاونته فى حملها الى مخدعها وبعد أن وضعاها فى فراشها وقاما بعمل الاسعافات الأولية لها التفتت رسمية هانم الى شوقى وقالت ـ انها حالة مؤلمة جدا يا شوقى . لقد كانت الصدمة أشد من أن تتحملها اعصابها ـ

فقال وهو يتأمل وجه أمه فى أسى وأسف .

ـ هذا عين ما توقعت حدوثه لها بعد اطلاعها على الحقيقة ـ

فنظرت اليه فى ريب وقالت وهى تنقل النظر بينهما

ـ ماذا ؟ أتظن أن لها ضلعا فى المسألة ؟ ـ

فقال فى حرارة ـ كلا ... اننى على يقين من طهارتها ، وماعنيت سوى أنها كانت تثق بيونس بك ثقة عمياء لا حد لها ـ

فتبدد توجسها وقالت فى ارتياح ـ حسنا، والآن اصغ الى ياشوقى، لئن كان يونس قد فجعك وأذاك أكثر من مرة فقد نال جزاءه مضاعفا ، ومن ثم لا ينبغى بعد اليوم أن تفكر فى جريمته أو تستعيد ذكرياتها الأليمة القاتمة ، امحها من ذاكرتك وطأها بقدميك كما تطأ الجمرة المتقدة ولا تدع لها فرصة لتكدير صفوك وتنغيص الحياة السعيدة التى تنتظرك مع زوجتك العزيزة ، هذا ما أردت أن أقوله لك الآن واذا أردت المزيد من النصيحة فانى أشير عليك بضرورة المبادرة بالرحيل الى لبنان والعودة بحورية فى أقرب فرصة ممكنة فان حضورها كفيل بأن يعزينا عن آلامنا ويفرج عنا ما نحن فيه ـ

فنظر اليها نظرة امتنان وقال ـ لست أدرى كيف اشكرك يارسمية هانم ، انى لن أنسى لك هذه اليد التى تسديها الى دائما فى الشدائد ـ

فقالت ـ انى لم افعل شيئا يستوجب الشكر فوجه الشكر لله الذى انقذنا من الشر وخلصنا جميعا من العار ، والآن خبرنى ماذا تنتوى عمله ؟ ـ

فأجابها ـ سأذهب فورا لاستدعاء الطبيب وسوف أرحل بعد ذلك الى لبنان بالطائرة للعودة بحورية ـ

فأشرقت أساريرها وقالت ـ دع لى مهمة العنـاية بوالدتك أما أنت فـلا ينبغى أن تضيع دقيقة واحـدة اذ لا بد انها تنتظرك على أحر من الجمر ـ

فأجابها ـ بوسعى أن انتظر قليلا حتى يحين موعد قيام الطائرة ـ

ـ حسنا ، اذهب اذن واستدع الطبيب ـ

* * *

وجاء الطبيب بعد وقت قصير وبعد أن فحص المريضة قرر أنها بحاجة الى الراحة وأمر بعدم ازعاجها الى أن تثوب الى رشدها ، ثم دار بينه وبين رسميـة هانم وشوقى حـديث قصير استخلصا منه أن حالتها مطمئنة وانها ستعود الى حالتها الطبيعية بعد فترة قصيرة . .

وعلى أثر انصراف الطبيب انفردت رسمية هانم بشوقى فى غرفـة مجاورة لغرفة المريضة وقالت له

ـ الآن تستطيع أن تسارع الى حورية وأنت مطمئن النفس ، ولـكن قبل أن تذهب أحب أن أسألك شيئاً ـ

فقال ـ اطلبى ما شئت يا رسمـية هانم فلست أطمـح الى شىء كما أطمح الى تحقيق رغبة لك ـ

فقالت ـ شكرا لك ، ولكنى أخشى أن يكون ما سأطلبه عسير المنال ـ

فأجابها ـ ثقى بأننى لن أعترض على رغبة لك ، فماذا تطلبين ؟ ـ

فقالت ـ ليس لى سوى مطلب واحد ياشوقى فهل تعدنى به ؟ ـ

ـ أجل ، أعدك ، فما هو ـ

ـ انك لاشك تعلم أن حورية عندى خير من كل انسان ، وهى أحب الى نفسى وأقرب الى قلبى من فاتن نفسها ، ولذلك فانى أناشدك أن تجعل مقامها هى وزوجة ابيها وبناتها الثلاث فى الضيعة والا تعمل على التفرقة بينها وبينى بحال من الأحوال ـ

فقال وعلى فمه ابتسامة تنم عن الرضا والسرور .

ـ ومن قال لك اننى انتوى خلاف ذلك يا رسمية هانم ؟ ـ

فأشرق وجهها وقالت فى فرح وجذل واغتباط .

ـ اذن فهذه هى نيتك ، لقد كنت والله اخشى أن يقف الماضى بذكرياته الأليمة حائلا بينكما وبين العودة الى الضيعة ـ

فأجابها ـ ان الضيعة هى أرض آمالى وفردوس حبى وأحلامى ، ومن أجل ذلك فلن أفكر يوما فى الارتحال عنها اللهم الا اذا سبق فى قضاء الله أن ننتزع منها مرة أخرى بضربة من ضربات القدر الباطشة ومفاجأة من مفاجئاته العمياء الجائرة ـ

فنظرت اليه وأخذت تتأمل مسحة الألم والغضب التى تسللت الى محياه ثم قالت :

ـ أراك شديد النقمة على القدر ـ

فقال ـ كيف لا وقد عبث بى وبها كل هذا العبث ، ان هذا القدر شىء جنونى مخيف للغاية ـ

فقالت ـ وما جدوى الغيظ والحنق والتمرد ياشوقى ، أليس من المحتمل أن يكون كل ما أصابك لحكمة تجهلها ؟ ـ

فانقبضت أسارير وجهه وقال فى صوت حافل بالضيق والضجر

ـ أية حكمة هذه ، اننا لم نرتكب شرا نعاقب عليه بالشر ، انه لقدر أخرق ذلك الذى يلقى نوائبه على الناس بغير حساب ، ويصب محنه على من لايستأهلها ـ

فقالت وهى ترقب انفعاله فى عطف واشفاق

ـ لو كنت مكانك لما عذبت نفسى بالتفكير على هذا النحو ـ

فأطرق لحظة مفكرا ثم رفع رأسه وقال :

ـ الواقع يارسمية هانم اننى كلما فكرت فى الكوارث التى صبها القدر على رأسى وعلى رأس حورية المسكينة ازدادت حيرتى وانحرف تفكيرى الى الضلال ، وانى كثيرا ما أتساءل لماذا قدر لنا ونحن أطيب الناس قلبا وأطهرهم نفسا أن نبتلى فى دنيانا بكل

هذه الخطوب ، ونلقى فى حياتنا كل هـذا الشر والعنت ، أليست هـذه حالة محيرة مؤلمة ؟ ـ

فأجابته ـ أجل ولـكنها لاتـكون كذلك اذا صغت كلامك صيغة أخرى وفـكرت على نحو آخر ـ

فقال ـ لعلك تقصدين وجوب الأذعان لمشيئة القدر والاستسلام لعبث القضـــاء ـ

فقالت ـ كلا ، وانما أقصد أن الشر شىء لاغنى للحياة عنه ، صحيح انه شىء بشع مخيف ولـكن لاتنسى أنه هو وحده الذى يستطيع أن يوضح وجه الخير ويظهر جماله للناس ، ولا شك أنك تدرك ذلك الآن أكثر من أى وقت آخر لأنك لاريب تحس فى هذه اللحظه التى تتأهب فيها للقاء حورية بعد طول التفريق بسعادة لم تنعم بها من قبل ولم يدر بخـــلدك انها تتاح لانسان فى الحياة ، وما ذلك الا لأنك عرفت الشقاء وذقت طعم الحرمان والألم أليس كـذلك ؟ ـ

فأجابها ـ اننى متفق معك فى الرأى بأنه ليس هنـاك ما يسمو بقلب المرء مثل الألم ، ولـكن لاشك أن التجربة التى مرت بنا كانت قاسيـة للغاية ـ

فقالت ـ هذا صحيح ولـكنها كفيلة بأن تجعل منكما أسعد زوجين فى الوجـــود ـ

وظل الاثنان يخوضان فى هذا الحديث الى أن اقترب موعـد قيـام الطائرة ، وحينئذ نهض الشاب والفـرح يشيع فى جوانب نفسه ثم شكرها وحياها وانصرف .

الخـــاتمة

أحدثت برقية شوقى فى نفس حورية حبورا لا حد له ، فأنشأت تدندن طول يومها بأغنية جميلة تشيد بعودة الحبيب ، وظلت تروح وتغدو فرحة مستبشرة تحادث هذا وتبسم لتلك ، وسرت عدوى حبورها الى الأستاذ شفيق ورفاقه فسبحوا معها فى عالم كله فرح وابتهاج ، وانغمروا بمشاعرهم فى جو مرح جميل.

وكان اليوم التالى يوما بهيجا اعتدل جوه وسرى سحره وامتزجت أنفاسه العطرة بآمال حورية امتزاجا انتشت له جسما وروحا ، وخطر لها قبيل الأصيل أن تصعد الى غرفتها لتصلح من زينتها وتهيىء نفسها للقاء زوجها ، فلما انفردت بنفسها فى غرفتها ألقت عنها ثوبها الذى كانت ترتديه فى الصباح وارتدت ثوبا آخر أبيض اللون بدت فيه كالزنبقة المتألقه ، ثم اتكأت على حافة فراشها وأسبلت أهدابها مستغرقة فيما يغمرها من فيض السعادة ويستنفد قواها من نشوة الفرح والغبطة، وانها لكذلك اذا بباب الغرفة يفتح فجاة ودخلت فائزة وهى تثب من الفرح وما أن رأتها حتى هتفت قائلة :

ـ ويحك ياحورية من فتاة ، أهكذا تفعلين ساعة وصوله ؟ ـ فحملقت فى وجهها وقالت ـ الا تكفين عن هذا المزاح يافائزة ؟ـ فأسرعت اليها وقالت وهى تضمها فى حرارة

ـ اقسم لك اننى جادة هـذه المـرة ، اننى أول من رأيته حين هبط من السيارة فجئت توا لأخبرك ، لشد ما تغير هذه الأيام ..ـ قالت ذلك ثم جذبتها من يدها فاندفعت معها مهرولة الى الخارج وصـدرها يعلو ويهبط من شدة التأثر ، فلما بلغتا رأس الدرج نظرت فائزة الى أسفل وأشارت قائلة ـ هوذا مع أبى والأستاذ شفيق ... انتظرى قليلا سأذهب اليه أولا ـ

قالت ذلك ثم تركت صديقتها ومضت هابطة الى القاعة .

وكان الشاب فى ذلك الوقت واقفا فى الردهـة يحيط به الاستاذ شفيق وأفراد الأسرتين ، وكانوا جميعا يتحدثون معه بأصوات مرتفعة وحالما اقتربت منه فائزة وأشارت اليه رفع وجهه ودار بعينيه بسرعة الى أن استقرتا على وجـه حورية وهى تطل عليه من فـوق الدرج وحينئذ صاح هاتفا باسمهـا فى غبطة غاشية ثم ترك من معه ووثب صاعـدا اليها فى قفزات واسعـة ، وكانت حورية ترقبه من هـذا المدى وهى نهب شعور غامر فلما أصبح عـلى قيد خطوات منها تقدمت اليه وهى تتعثر فى مشيتها فأسرع اليها مادا ذراعيه وهو يقول فى شوق ولهفة

— حورية .... يا للمعجزة ... ـ

فاندفعت نحوه والدموع تنهمر من مقلتيها وقالت فى صوت مختنق .

— شوقى ... مرحبا بك يازوجى العزيز ـ

فمد اليها ذراعيه ثم ضمها الى صدره فى شوق وشغف ، وساد بينهما صمت أبلغ من كل كلام ، وعندما أطلقها من بين ذراعيه أمسك بكتفيها وقال وهو يشخص الى أعماق حدقتيها المغرورقتين بالدموع ـ حورية ، دعينى أشبع البصر بمحياك ـ

قال ذلك ثم عاود ضمها وهو يقول ـ آه يا زوجى الحبيبة ، كيف اثبت لك فرحى بعودتك ـ

فأجابته بصوت مختنق بدموع الفرح

— وكيف تثبته أكثر مما أثبته يا حبيبى ـ

فقال وهو يضغط على يدها ـ ما أعذب هذا اللفظ تناديني به يا حورية ، أما زلت حقا تحبيننى رغم ما حدث ـ

فأجابته ـ بكل قطرة من دمائى ـ

وحينئذ ارتفع من ورائهما صوت يقول :

— يا له من مشهد رائع ... اننى اعترف انه أروع مشهد غرامى رأيته فى حياتى ـ

فالتفتا وعندئذ وقع بصرهما على الأستاذ شفيق وهو يتقدم ناحيتهما وفى يده ورقة متوسطة الحجم ، فابتسما له وقال شوقى مستفسرا وهو ينظر الى الورقة

ـ ما هذا ؟ ـ

فأجابه ـ عقد اتفاق ـ

فقال الآخر ـ عقد ! ماذا تعنى ؟ ـ

فابتسم شفيق وقال ـ اعنى أنكما ستقومان باعادة تمثيل هذه القصة فى فيلمى الجديد ، فهل تبخلان على بذلك ؟ ـ

فتردد الشاب قليلا ثم قال ـ اصغ الى يا أستاذ شفيق ، انك قدمت لنا يدا لا ننساها اذ كنت سببا فى محو شقائنا وردنا من جديد الى حياتنا الأولى وهى خدمة أجل من أن يعبر عنها بشكر ، ولذلك فانى أوافق ولكن بشرط اشترطه عليك ـ

فقال الآخر ـ اننى أقبله مقدما عن طيب خاطر ، فما هو ؟

فقال الشاب ـ أن تعدل القصة بحيث لا تفصح عن أشخاصها الحقيقيين احتراما لرغبة يونس بك التى ابداها قبل انتحاره كما ذكرت لك عند وصولى ـ

وهنا صاحت حورية تقول فى دهشة ـ انتحاره !!

فالتفت اليها وقال ـ أجل ، لقد انتحر بعد أن واجهته بأدلة

الجريمة ، وسوف أسرد لك ماتم بيني وبينه بعد قليل ـ
واستطرد يقول موجها الحديث الى شفيق ـ هذا هو الشرط الذى اشترطه عليك ، فما رأيك ؟ ـ

فأجابه ـ مادامت هذه رغبتك فانى أقبله بكل سرور ـ

وعندما هبطوا الى القاعة أقبل النزلاء جماعة بعد جماعة يحيونها ويهنئونها وكان فى صدر الجميع عارف باشا وجميل بك وفائزة فلما فرغ الزوجان من رد التحية لمهنئيها انتقلا مع أصدقائها الى الشرفة وأخذا يتجاذبان معهم أطراف الحديث الى أن حان موعد وليمة العشاء التى أعدها عارف باشا تكريما لهذه المناسبة .

* * *

وقضى شوقى مع حورية أياما فى الفندق شربا فيها كأس السعادة صفوا ، واعتصرا معا خير ما فى الحياة من نعيم ومتاع ولذة ، ونعما بامتزاج روحى رفيع وجدا فيه ما فرج عن المكبوت من أحاسيسها الفياضة ، والمحتجز من أشواقها الحارة الغامرة .

وبعد أسبوع غادرا الفندق الى بعض مصايف لبنان

فى رحلة جميلة أشبه باجازة شهر العسل حيث اختلسا لحبهما فترة سعيدة بعيدين عن أعين الناس ، وبعد أن أشبعا قلبيهما عادا مرة ثانية الى « عاليه » ثم اصطحبا الأستاذ شفيق واستقلا معه طائرة عادت بهم إلى مصر .

تمت